

قُصَصُ الْأَنْبِيَاءِ

من آدم عليه السلام إلى خاتم المرسلين
محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ



إعداد
د. محمد عمارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قصص الأنبياء

من القرآن الكريم والسنة الصحيحة

سير مستقاة من كتاب الله وصحيح ما ثبت عن رسوله ﷺ

مقدمة المنهج

قصص الأنبياء في القرآن ليست حكايات تُروى للتسلية، بل عبرٌ متعمدة، وآياتٌ قال الله عنها: "لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ" (يوسف ١١١). ولذلك التزمْتُ في هذا الكتاب منهجًا صارمًا في مصادره: الاعتماد كليًا على القرآن الكريم بنصه، مع الاستئناس بما صحَّ من السنة النبوية في الصحيحين (البخاري ومسلم) خاصة، دون الاستطراد إلى الإسرائيليات أو الروايات الضعيفة أو المكذوبة التي تسربت إلى كتب القصص القديمة.

هذا يعني أن القارئ لن يجد في هذا الكتاب تفاصيل شائعة في بعض كتب التراث لا سند لها يصح، كأسماء أو أعداد أو تفاصيل حسية لم يذكرها الوحي. وحين يسكت القرآن والسنة الصحيحة عن تفصيل

ما، سيسكت هذا الكتاب معه، عملاً بمنهج المحدثين والمفسرين المحققين كابن كثير في التزامه الحذر من الإسرائيليات، وابن تيمية في تحذيره من رواية "لا يُصدّق ولا يُكذّب" حين تتعارض مع أصول الشرع.

سيسير الكتاب في الغالب على الترتيب الذي عرفه علماء القصص القرآني: آدم أبو البشر، ثم نوح أول رسل العزم، ثم إبراهيم خليل الرحمن، ثم من تفرّع من ذريته من الأنبياء، وصولاً إلى خاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم. وفي كل فصل، ستُروى القصة كما وردت في القرآن مباشرة، مدعومة بما صح من تفصيل نبوي، مع وقفات تأمل موجزة تربط الحدث بالعبرة.

آدم عليه السلام

أبو البشر، وأول الخلفاء في الأرض، وأول التوابين

الاستخلاف: حوار قبل الخلق

ق

بل أن يُخلق آدم، دار في الملاء الأعلى حوارًا يكشف عن حكمة

الاستخلاف منذ البداية. أخبر الله ملائكته بما هو مُقَدِّمٌ عليه، فتساءلت الملائكة
تساؤل مستفسر لا معترض:

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا
أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ
بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ

سورة البقرة، الآية ٣٠

لاحظ أن الملائكة لم تُعاقَب على سؤالها، بل جاء الرد "إني أعلم ما لا تعلمون" تعليماً لا تأنيباً. يقول الإمام الغزالي رحمه الله إن من أعظم أبواب المعرفة أن يُسلم العبد بأن وراء كل أمرٍ إلهي حكمةٌ قد يقصر عقله عن إدراكها، لا لعجزٍ في الأمر، بل لضيق دائرة الإدراك البشري أمام سعة العلم الإلهي. وهذا يؤسس منذ أول آية في قصص الأنبياء لمبدأ سيتكرر: أن حكمة الله في خلقه تتجاوز أحياناً إدراك المقرّبين أنفسهم، وأن السؤال عن الحكمة ليس اعتراضاً محرّماً ما دام صادراً عن رغبة في الفهم لا عن اعتراض على الأمر.



تكریم العلم: آدم يُعلِّم ما تجهله الملائكة

وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ
أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ • قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا
عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ

وحين أنبأ آدم الملائكة بالأسماء التي عجزوا عنها، جاء البيان الإلهي حاسماً
لسر الاستخلاف الذي سألت عنه الملائكة أول الأمر:

قَالَ يٰٓأَدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ۖ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ
أَقُلْ لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ

سورة البقرة، الآية ٣٣ (مقطعة)

هذا أول درس في قصص الأنبياء كلها: أن التكريم بالعلم سبق التكريم
بالسجود. لم يُكرّم آدم لأنه أقوى من الملائكة أو أكثر عبادة، بل لأنه حمل
قدرة على التسمية والمعرفة لم تحملها الملائكة. ويرى ابن القيم رحمه
الله أن هذا التقديم دليل على أن العلم بالأسماء والحقائق هو ذاته أول
درجات الاستخلاف في الأرض؛ فمن لا يعرف حقائق الأشياء لا يملك أن
يُصلح فيها، ولذلك جعل الله ميراث النبوة كلها ميراث علم لا ميراث مال
ولا سلطان. والعلم هنا ليس معرفة نظرية فحسب، بل هو جوهر الأهلية

للخلافة في الأرض: مَنْ يعرف أسماء الأشياء وحقائقها هو الأقدر على إدارتها وإصلاحها.



السجود والإباء: طاعة الملائكة، وكبر إبليس

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ
وَأَسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ

سورة البقرة، الآية ٣٤

من التفسير: بين المفسرون، ومنهم ابن كثير والقرطبي، أن هذا السجود كان سجود تحية وتكريم لآدم، لا سجود عبادة؛ إذ لا تجوز عبادة غير الله بحال، وإنما أمرت الملائكة أن تسجد لآدم كما تُستقبل القبلة في الصلاة دون أن تُعبد، تكريمًا لمقامه ومنزلته التي خصّه الله بها. وهذا يوضح أن سجود التحية كان معروفاً في الشرائع السابقة، بخلاف شريعة الإسلام التي حصرت السجود بالعبادة لله وحده.

وحين سُئل إبليس عن سبب إباطه، جاء جوابه كاشفًا لجوهر الكبّر: مقارنة نفسه بآدم بمعيّار مادي بحث لا يقيس حقيقة التكريم:

قَالَ مَا مَنَعَكَ إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ
خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ

سورة الأعراف، الآية ١٢

هذا القسم الإِبليسي — "لأقعدنّ لهم صراطك المستقيم" — أشبه بإعلان حربٍ رسمي، لا وسوسة عابرة، وفي جرسه اللغوي وحده جلالٌ يوقفنا: القسم بصيغة اللام المؤكدة يشي بعزمٍ لا تراجع فيه. أربع جهات حصرها إبليس لهجومه: من الأمام (تزيين المستقبل)، ومن الخلف (تعظيم الماضي وتزيين الرجوع إليه)، ومن اليمين (التلبيس في الدين)، ومن الشمال (تزيين الشهوات). ولم يذكر جهة "من فوقهم"، وقد فُسّر ذلك بأن رحمة الله من فوق العباد لا سبيل للشيطان إلى قطعها عنهم مهما بلغ كيده؛ فالشرّ، مهما أحكم دائرته وأحصى جهاته الأربع، يبقى عاجزًا عن سدّ الجهة الوحيدة التي منها تنزل الرحمة: بابٌ لا يُغلق أبدًا أمام قلبٍ يدعو.



الجنة والشجرة: الوسوسة الأولى

أُسكن آدم وزوجه الجنة، بإباحة واسعة وتحذير واحد محدد:

وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا
حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ

سورة البقرة، الآية ٣٥

وفي سورة طه، يُفَصِّلُ مشهد الوسوسة بدقة أكبر، إذ يكشف القرآن الأسلوب الذي استخدمه الشيطان: الإغراء بالخلود والملك الدائم، وهما أمنيستان بشريتان عميقتان:

فَوَسَّسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ
وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى . فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لُهُمَا سَوَاءُهُمَا...
وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى

من التفسير: ذكر المفسرون أن "الغواية" في قوله تعالى "فغوى" هنا بمعنى الخيبة والحرمان مما هو أولى وأفضل، لا الغواية بمعنى الكفر أو الفسوق الأكبر؛ فآدم عليه السلام نبيٍّ معصوم من الكفر، وإنما وقع في مخالفة أمر إرشادٍ لا وجوب، ثم تاب منها فتاب الله عليه. وقد نبّه ابن القيم إلى أن استعمال القرآن للفظ "عصى" هنا مع آدم لم يكن انتقاصاً منه، بل تعليماً للأمة أن الأنبياء بشر قد يقعون في ترك الأولى، وأن كمالهم في سرعة الأوبة لا في العصمة من كل خطأ.

لم يوسوس الشيطان لآدم بإنكار الله أو بالكفر الصريح، بل بأمنية مشروعة الظاهر: الخلود، والملك. وهذا نمط الإغواء الأخطر الذي حذر منه ابن القيم في غير موضع من كتبه: أن يُلبس المعصية ثوب الطموح المشروع، فلا يعصي العبد وهو يشعر أنه يعصي، بل وهو يظن أنه يسعى لخير لنفسه. "وعصى آدم ربه فغوى" — تعبيرٌ صريح لا يتجمل ولا يُبرّر، والقرآن هنا يعلم أدباً مهماً: أن الاعتراف بالخطأ صراحة هو أول خطوة نحو التوبة، لا التبرير له.



التوبة: "فتلقى آدم من ربه كلمات"

لم يُترك آدم في خطيئته، بل تلقى من ربه ما يُنجيه، في مشهد هو أول توبة مسجلة في تاريخ البشرية:

فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ
الرَّحِيمُ

سورة البقرة، الآية ٣٧

وقد بيّنت آيات الأعراف نفس هذه "الكلمات" التي تلقاها آدم، وهي دعاء نموذجي في الاعتراف والانكسار:

قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ
الْخَاسِرِينَ

سورة الأعراف، الآية ٢٣

تأمل بنية الدعاء: اعترافٌ صريح بالظلم ("ظلمنا أنفسنا")، ثم توسّل بصفتين إلهيتين (المغفرة والرحمة)، ثم إقرارٌ بالمصير المحتمل لو لم تُقبل التوبة ("لنكونن من الخاسرين"). يقول الغزالي رحمه الله إن أعمق التوبة ما بدأت بمعرفة العبد لنفسه قبل معرفته لربه؛ فلا تصح توبة حقيقية إلا بعد أن يرى العبد ظلمه لنفسه بعين صادقة، لا بعين تبحث عن معاذير. هذا القالب الدعائي أصبح نموذجًا يحتذيه كل تائب من بعد آدم: اعترافٌ لا تبرير، وتوسّلٌ لا استحقاق، وخشيةٌ من سوء العاقبة لا أمنٌ زائف.



الهبوط: عهدٌ للأرض لا نفى منها

قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى

سورة طه، الآية ١٢٣

لم يكن الهبوط إلى الأرض عقوبة نهائية منقطعة الأمل، بل كان استئنافاً لمشروع الاستخلاف الذي أعلن في أول القصة: "إني جاعل في الأرض خليفة". الأرض إذن لم تكن منفى آدم، بل كانت وجهته الأصلية التي تأجلت بتجربة الجنة والمعصية والتوبة، لتكتمل دورته الأولى: من التكريم بالعلم، إلى الابتلاء بالوسوسة، إلى التوبة، إلى استئناف المهمة الأصلية على الأرض بشرط واحد: اتباع الهدى.

خلاصة الفصل: أبو البشر، وأول التوابين

في قصة آدم تكتمل دورة كاملة ستتكرر بصور مختلفة مع كل الأنبياء الذين سيأتون بعده: تكريمٌ إلهي، ثم ابتلاءٌ يكشف حقيقة النفس، ثم إما إباءٌ واستكبار (كما فعل إبليس) وإما اعترافٌ وتوبة (كما فعل آدم). ولذلك استحق آدم أن يكون "أبا البشر" ليس فقط بالنسب الجسدي، بل بكونه مؤسس النموذج الإيماني الذي سيسير عليه كل ذريته من بعده: أن الكمال ليس في العصمة من الخطأ، بل في سرعة الرجوع بعده. فكما وصفه القرآن: "ثُمَّ أَجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَبَّا عَلَيْهِ وَهَدَىٰ" (طه ١٢٢) — اجتباءً بعد المعصية، لا رغم التوبة، بل بسببها.

[يتبع: إدريس عليه السلام]

إدريس عليه السلام

الصديق النبي، المرفوع مكاناً علياً

م

ن الأنبياء الذين لم يرد عنهم في القرآن تفصيل قصصي، بل إشارة

موجزة كثيفة المعنى، إدريس عليه السلام:

وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ۖ
وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا

سورة مريم، الآيتان ٥٦-٥٧

وذكر أيضاً في سياق آخر مع إسماعيل وذي الكفل، موصوفاً بالصبر ودخول
الرحمة: "وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ" (الأنبياء ٨٥).

التزاماً بمنهج هذا الكتاب في عدم تجاوز ما صح، أكتفي هنا بما ورد في القرآن من هذين الوصفين الجليلين: "صَدِّيقًا نَبِيًّا"، و"رفعناه مكاناً عليًّا". وما ورد في بعض كتب التراث من تفاصيل عن حياته، أو ربطه ببعض العلوم والحرف، لا سند صحيحاً له يُعتمد، فُثِرْتُ.

نوح عليه السلام

أول رسل العزم، وأطول الأنبياء دعوةً وصبراً

الإرسال: نذيرُ لقومٍ عبدوا غير الله

ع

رسل الله نوحًا إلى قومه بعد أن انحرفوا عن التوحيد إلى عبادة أصنام

سَمَّاها القرآن في سورة نوح (ودّ وسواع ويغوث ويعوق ونسراً)، فبدأ دعوته بأبسط صيغة توحيد وأوضحها:

لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَّبِعُونَ اللَّهَ مَا لَكُمْ
مِّنْ إِلَهِ غَيْرِهِ ۖ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ

سورة الأعراف، الآية ٥٩

الدعوة الطويلة: ألف سنة إلا خمسين عاماً

ميّز الله دعوة نوح بذكر مدتها الزمنية الهائلة صراحة في القرآن: "فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا" (العنكبوت ١٤). وقد وصف نوح بنفسه أسلوب دعوته المتنوع أمام ربه:

قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا • فَلَمْ يَزِدْهُمْ
دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا • وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا
أَصْبَعَهُمْ فِي إِذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا
اسْتِكْبَارًا

سورة نوح، الآيات ٥-٧

سدّ الأذن بالأصابع، والتغطي بالثياب، رمزان لأقصى درجات الرفض: لا مجرد عدم الاقتناع، بل الحرص الفعلي على عدم سماع الحجة أصلاً. ويعلق ابن القيم على مثل هذا الموقف بأن القلب إذا أصرّ على الإعراض، تحوّلت جوارح صاحبه نفسها إلى حجاب دونه، فتصير الأذن التي خلقت للسمع أداة صمّ، والعين التي خلقت للبصر أداة عمى، عقوبة

معجّلة قبل عقوبة الآخرة. ومع ذلك، استمر نوح قرابة ألف عام بلا كلل — وهذا وحده يجعله نموذجًا فريدًا في الصبر على الدعوة بين كل الأنبياء.

وقد اتهمه الملائكة بأنه بشرٌ عادي يطلب التفضّل عليهم، بل ووصفوه بالجنون:

فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ
يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ... إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ
فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ

سورة المؤمنون، الآيتان ٢٤-٢٥



أمر ببناء الفلك واستهزاء القوم

حين استنفذ نوح وسائل الدعوة، ودعا ربه أن ينصره بما كذّبوه، جاء الأمر الإلهي ببناء السفينة، في أرض لا بحر قريب منها:

فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحَيْنَا فَإِذَا جَاءَ
أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ
وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ

سورة المؤمنون، الآية ٢٧

وَيَصْنَعُ الْفُلَّكَ وَكَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ
قَالَ إِنْ تَسْخَرُونَ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ

سورة هود، الآية ٣٨

مشهدٌ عبثي في ظاهره: نبيٌ عجوز يبني سفينة ضخمة في صحراء، وقومه يَمرون عليه ساخرين. لكن رده لم يكن غضبًا، بل تحذيرًا هادئًا

واثقًا: "فسوف تعلمون" — وفي إيجاز هذا الرد بلاغةٌ تستحق وقفة رافعية: فالكلام القليل الواثق أشدّ وقعًا من كثيرٍ متوعدّ، لأن صاحب اليقين لا يحتاج أن يرفع صوته ليثبت صدقه، بل يكفيه أن يترك الأيام تشهد له. الثقة هنا ليست عنادًا، بل يقينًا مبنيا على وحي صريح.



الطوفان: نجاة للبعض، وغرقٌ حتى للابن

حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ
زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ
وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ

سورة هود، الآية ٤٠

"وما آمن معه إلا قليل" — بعد ألف عام تقريبًا من الدعوة المتصلة، لم يؤمن إلا نفرٌ يسير. ثم تأتي لحظة الركوب بذكر اسم الله:

وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَجَرَّهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ
رَحِيمٌ

سورة هود، الآية ٤١

وفي أشد لحظات المشهد مأساوية، يرى نوح ابنه بعيداً عن السفينة، فيناديه
نداء أبٍ لا نداء نبي:

وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ، وَكَانَ
فِي مَعَزٍ يُبْنِي أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ • قَالَ
سَأُوتِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ
مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ
الْمُغْرَقِينَ

سورة هود، الآيتان ٤٢-٤٣

من التفسير: أوضح المفسرون أن ابن نوح هذا لم يكن على دين أبيه، وقد رجّح أكثرهم أنه ابنه لصلبه لا ابن زوجته من غيره، خلافاً لما قد يُظنّ. وسيأتي في الآية التالية (٤٦) بيان إلهي صريح: "إنه ليس من أهلك" — وقد بين ابن كثير أن معناها ليس نفياً للنسب الجسدي، بل نفياً لأهلية "الأهل" الذين وعد الله نوحاً بنجاتهم، أي أهل الإيمان والصلاح؛ فالرابطة التي يعول عليها الوعد الإلهي هنا هي رابطة الدين، لا رابطة الدم وحدها.

هذا المشهد يقرر مبدأً عقدياً حاسماً: لا نجاة بالنسب، بل بالإيمان. ابن نبيٍّ من أولي العزم غرق مع الغارقين، وقد جاء التوضيح الإلهي لاحقاً حين حزن نوح عليه: "إِنَّهُ، لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ، عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ" (هود ٤٦) — أي أن رابطة "الأهل" الحقيقية هنا هي رابطة الصلاح، لا رابطة الدم وحدها.



وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَسْمَأْ أَقْلِي وَغِيضَ الْمَاءَ
وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدَ الْمَقُومِ
الظَّالِمِينَ

سورة هود، الآية ٤٤

من التفسير: ذكر المفسرون، ومنهم ابن كثير والطبري، أن "الجودي" جبلٌ معروف في أعالي بلاد ما بين النهرين، قرب الموصل من العراق. ونَبّه بعض المحققين إلى وجوب الحذر من كثيرٍ مما ألحق بهذه القصة من تفاصيل الإسرائيلية عن أبعاد السفينة وعدد ركابها بالضبط، إذ لم يرد في القرآن ولا في السنة الصحيحة تحديدٌ لذلك، فالأولى الوقوف عند ما صحَّ.

وفي ختام سورة نوح، يسجّل القرآن آخر دعواته على قومه بعد أن ينس من إيمانهم، ثم دعاءه الشامل لنفسه ووالديه والمؤمنين:

رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ
وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا

سورة نوح، الآية ٢٨



من السنة الصحيحة: نوح في حديث الشفاعة الكبرى

ورد في الصحيحين (البخاري ومسلم) في حديث الشفاعة الطويل المعروف، أن الناس يوم القيامة، في هول الموقف، يطلبون من آدم أن يشفع لهم، فيعتذر ويذكر خطيئته، ويرشدهم إلى نوح قائلاً: "اذهبوا إلى نوح". فيأتون نوحاً ويقولون له: "أنت أول رسل الله إلى أهل الأرض، وقد سَمَّاكَ الله عبداً شكوراً، فاشفع لنا إلى ربك". فيعتذر نوح بدوره، ويذكر أن له دعوة واحدة مستجابة قد استعملها بالفعل على قومه في الدنيا (وهي دعوته التي مرّت معنا: "رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً")، فيقول: "نفسي نفسي"، ويرشدهم إلى نبي آخر، حتى تنتهي السلسلة إلى النبي محمد صلى الله عليه وسلم الذي يشفع الشفاعة العظمى المقبولة.

من حديث الشفاعة الطويل: «...فيأتون نوحًا فيقولون: يا نوح، أنت أول
الرسل إلى أهل الأرض، وقد سمّاك الله عبدًا شكورًا، اشفع لنا إلى
ربك... فيقول: إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله ولن
يغضب بعده مثله، وإنه قد كانت لي دعوة دعوتُ بها على قومي، نفسي
نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى إبراهيم»

متفق عليه (رواه البخاري ومسلم) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، في قصة الشفاعة
الكبرى يوم القيامة

هذا الحديث يضيف بُعدًا إنسانيًا عميقًا لم يظهر في القصة القرآنية
المجردة: أن نوحًا نفسه، رغم مقامه الرفيع كأول رسل العزم، سيتذكر
يوم القيامة دعوته التي استعجل بها على قومه، ويعتبرها سببًا لاعتذاره
عن الشفاعة العظمى. وفي هذا تعليمٌ خفي: أن استخدام الدعوة
المستجابة يحتاج حكمة وتأنّيًا، حتى من الأنبياء أنفسهم؛ فالنبي محمد
صلى الله عليه وسلم، كما ثبت في صحيح مسلم، ادّخر دعوته
المستجابة لشفاعة أمته يوم القيامة بدل استعجالها في الدنيا.

خلاصة الفصل: صبرٌ بلا حدود، ونجاةٌ بالإيمان لا بالنسب

قصة نوح، بما تحمله من طول الزمن وقسوة الرفض، تؤسس لمعنيين جوهريين يتكرران في قصص كل الأنبياء بعده: أن الصبر على الدعوة له حدٌ زمني لا يعرفه إلا الله (فقد يمتد لعقود أو لقرون)، وأن معيار النجاة عند الله هو الإيمان والعمل الصالح، لا صلة القرابة أو النسب مهما علّت. وقد استحق نوح بذلك أن يكون أول "أولي العزم من الرسل" الذين خصّهم القرآن بالذكر في آية الأحزاب (٧)، لأنه أول من علّم البشرية معنى الثبات على الحق مهما طال زمن الغربة فيه.

هود عليه السلام

أخو عاد، ومحاور القوة الطاغية بمنطق العقل الهادي،

قَوْمُ بَنُوا الْأَرْضَ، فَنَسُوا مَنْ بَنَاهُمْ

ل انت عادُ أمة القوة في زمانها، لا تُضاهيها أمة في بأس الجسد

وضخامة البنيان؛ نحتوا من الجبال قصورًا، وشيّدوا على كل مرتفع بناءً لا حاجة إليه، بل عبثًا يُظهر الفخر: "اتَّبَتُّونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ" (الشعراء ١٢٨). وحين اطمأنّوا إلى قوتهم، نسوا مصدرها، حتى قالوا الكلمة التي لم يجرؤ عليها متكبر من قبلهم: "مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً" (فصلت ١٥) — وكأن القوة، حين تبلغ ذروتها في نفس صاحبها، تُنسيه أنها عارية لا ملك، وأن واهبها أقدر على سلبها من قدرته على وهبها.

في هذه الأمة الجبّارة، بُعث هود، لا غريبًا عنها، بل "أخاهم" كما وصفه القرآن ثلاث مرات: "وَالِى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودٌ" — فليس النبي هنا خصمًا خارجيًا، بل ابن العشيرة نفسها، يعرف قومه ويعرفونه، وهذا ما يجعل موقفه أشدّ إيلاّمًا حين يُكذّب: أن يُكذّبك مَنْ نشأت بينهم لا مَنْ جهلك.



المشهد الأول: حوار المواجهة في الملأ

يفتح هود دعوته بأبسط عبارة توحيد، لا تثقلها فلسفة ولا جدل: "يُقَوْمُ
أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ" (الأعراف ٦٥). فيأتي الرد من ملأ
قومه — أي أشrafهم ووجهائهم — بتهمة مزدوجة: السفاهة والكذب:

قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي سَفَاهَةٍ
وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ

سورة الأعراف، الآية ٦٦

وهنا يتجلى أسلوب هود الفريد بين الأنبياء: لم يرفع صوته، ولم يقابل التهمة
بتهمة، بل نفاها بهدوء المنطق الرصين، ثم قدّم نفسه بوصفٍ لا يحتمل اللبس:

قَالَ يَقَوْمُ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ
• أَلَيْسَ لِي رَسُولٌ مِنْ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ

من التفسير: بيّن المفسرون أن وصف "أخاهم" الذي تكرر مع هود وصالح وشعيب في القرآن، المقصود به أخوة النسب والقبيلة، لا أخوة الدين؛ فقد كان هؤلاء الأنبياء من صميم قبائل أقوامهم نسبًا، وإن خالفوهم عقيدة. وذكر الطبري أن في هذا حكمة بالغة: أن يُبعث الرسول من داخل القوم أنفسهم، ليعرفوا صدقه وأمانته من قبل بعثته، فلا يبقى لهم عذر برفضه بحجة الغربة أو الجهل بحاله.

"ناصح أمين" — وصفٌ يجمع بين القلب (النصح) والأمانة (حفظ الرسالة كما هي). لم يقل هود "أنا نبي مُعْجَز" ولا "أنا صاحب سلطان"، بل قدّم نفسه بأخفّ الصفات وأصدقها في العلاقة الإنسانية: رجلٌ ينصح قومه لأنه يحبهم، ويؤمن على ما يبلغهم لأنه لا يخون. ويقول الإمام الغزالي إن النصيحة الصادقة لا تصدر إلا عن قلبٍ خالٍ من إرادة العلوّ على المنصوح، وأن هذا الخلوّ نفسه هو سرّ تأثيرها، لأن القلوب تحسّ متى كان الناصح يريد لها الخير، ومتى كان يريد لنفسه الظهور. هذا الهدوء في مواجهة اتهام السفاهة يكشف عن ثبات نفسي عميق، أشبه بما وصفه الأقدمون بـ"سكينة الحق" التي لا تحتاج صخبًا لتثبت نفسها.



المشهد الثاني: تكرار "يا قوم" ثلاثياً — أسلوب الإلحاح الرحيم

وفي سورة هود، يُصوّر حواراً أطول وأكثر تفصيلاً، يتكرر فيه نداء هود لقومه بـ "يا قوم" ثلاث مرات متتالية تقريباً، وكأنه في كل مرة يفتح باباً جديداً للعقل قبل أن يُغلق نهائياً:

يَقُومُ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي
أَفَلَا تَعْقِلُونَ • وَيَقُومُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ
السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدَّكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ

سورة هود، الآيتان ٥١-٥٢

لاحظ الترتيب البلاغي الدقيق: ينفي أولاً شبهة المصلحة ("لا أسألكم عليه أجراً")، لأن أول ما يتّهم به الناس الدعاة هو الغرض الشخصي. ثم يعرض عليهم صفقة لا تخسر فيها الدنيا شيئاً: التوبة تجلب المطر وتزيد القوة، فكأنه يخاطبهم بمنطقهم هم — منطق القوة والعمران الذي يعتزّون به — لا بمنطق مجرد من واقعهم. هذا أسلوبٌ نفسي بديع: أن يكلم الداعية قومه بلغة ما يعتزّون به، لا بلغة ما يرفضونه.

فيأتي الرد، وقد بلغ ذروة العناد، بنفس تهمة الجنون التي رأيناها متكررة عند أنبياء آخرين — دليلاً على أن أسلوب الإنكار يتشابه عبر الأمم:

قَالُوا يَهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي ءَاهِتِنَا عَنْ قَوْلِكَ
وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ . إِنْ نَقُولُ إِلَّا أَعْرَضَكَ بَعْضُ ءَاهِتِنَا
بِسُوءِ

سورة هود، الآيات ٥٣-٥٤

فيردّ هود بأشجع كلمة يمكن أن ينطق بها مخلوق أمام قومٍ أقوىاء يملكون أن يبطشوا به، تحدياً مفتوحاً لا خوف فيه:

قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ . مِنْ
دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونَ . إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى
اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي
عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ

"فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون" — تحدّ لا يصدر إلا عن يقين مطلق، إذ يقف رجلٌ واحد أمام أمة كاملة قادرة على سحقه، ويقول لهم: افعلوا ما شئتم ولن أخاف، لأن ناصيتي بيد مَنْ بيده نواصيكم جميعاً. هذا هو التوكل في أرقى صوره: ليس غياباً للحس بالخطر، بل حضوراً لليقين الذي يعلو فوق الخطر. وقد استحضر ابن القيم رحمه الله معنى قريباً حين وصف اليقين بأنه "لا يعرف الخوف من غير الله لأن قلبه ممتلئ بجلال الله عن أن يتسع لغيره".



المشهد الثالث: السحابة التي ظنّوها رحمة، فكانت نعمة

ولما استنفذ الجدل طاقته، ورأى قوم عاد في الأفق سحابة قادمة نحو أوديتهم، فرحوا بها ظناً منهم أنها مطرٌ منتظر بعد جفاف طويل — وفي هذه اللحظة بالذات يكمن أبلغ مشاهد المفارقة في القرآن كله:

فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضٌ مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ
مُّطَرِّنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ

سورة الأحقاف، الآية ٢٤

من التفسير: ذكر ابن كثير أن قوم عاد كانوا قد أصابهم قحط وجفاف قبل هذا المشهد، فلما رأوا السحابة توجهت لأوديتهم فرحوا ظانين الغيث، وهذا ما زاد المفارقة عمقاً في نظر المفسرين: أن العذاب أتاهاهم في هيئة ما كانوا يدعون الله أن يرزقهم إياه. وقد استدل بهذه الآية على أن العلامات الظاهرة (كالسحاب) لا تدل بذاتها على رحمة أو نقمة، وإنما العبرة بما يقضيه الله فيها.

لحظة تختصر مأساة الغفلة البشرية بأكملها: نفس الغيمة التي حسبوها بشارة رحمة، كانت نذير هلاكهم. وكأن القرآن يرسم هنا صورةً بلاغية لكل من يفرح بما يظنه نعمة وهو عذابٌ متنكر، لأن قلبه أغلق عن التمييز بين الوعد والوعيد حين تبدل بالإصرار على التكذيب.

فأرسل الله عليهم ريحاً لا تشبه ما عهدوه من رياح، وصفتها آيتان بدقة
مربعة:

وَأَمَّا عَادٌ فَأَهْلِكُوهَا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ • سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ
 لَيَالٍ وَثْمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ
 أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ

سورة الحاقة، الآيات ٦-٧

سبع ليالٍ وثمانية أيام متتالية — لا لحظة انفجار واحدة، بل عذابٍ ممتد كأنه أراد أن يمنحهم فرصة يقظة في كل لحظة منه، فلم تأت. وتشبيه أجسادهم الممزقة بـ "أعجاز نخل خاوية" — جذوع نخيل مجوفة ساقطة — يستحضر صورة القوة التي كانوا يفخرون بها وقد أصبحت جثثًا هشة كجذوع خاوية، في انعكاسٍ بلاغي قاسٍ لغرورهم الأول: "من أشد منا قوة؟".

خلاصة الفصل: حين يواجه الحقُّ الهادئُ صخبَ القوة

في قصة هود، يقدم القرآن نموذجًا مغايرًا لصورة النبي المواجه: لا صراخ، ولا انفعال، بل حوارٌ متزن يخاطب العقل أولاً، ثم يعرض المصلحة، ثم يُشهد الله على البراءة حين يُتهم، ثم يتحدّى بيقين هادئ لا صوت فيه إلا صوت الحق.

وحين يُقَابَل هذا الهدوء بالاستكبار المطلق ("من أشد منا قوة")، يأتي الرد الإلهي ريحًا عاتية، لتُعلِّم كل قوةٍ بشرية أن قوتها عاريةٌ أمام قوة خالقها، وأن السكينة التي يملكها المؤمن الواصل أعتى من كل جبروت يملكه الطاغية المستكبر.

صالح عليه السلام

أخو ثمود، وآية الناقة التي فضحت حقيقة القلوب

خلفاء عادٍ في الأرض، ووارثوها في الغرور

بين طوت الريحُ العاتية صفحة عادٍ، ورث الأرض من بعدهم قومٌ آخرون: ثمود، الذين اتخذوا من السهول قصورًا، ونحتوا من الجبال بيوتًا فارهة، وكأن القرآن يرينا بعين البصيرة أن الحضارة حين لا تُقَرَن بالتقوى، تتوارثها أُمَمٌ مختلفة الأسماء متشابهة المصائر. وقد ذكّرهم صالح، أخوهم من نسبهم، بهذا الميراث نفسه تذكيرًا لا تفاخرًا: "وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ" (الأعراف ٧٤) — وكأنه يقول لهم: انظروا إلى مَنْ سبقكم، فإنه أنموذجٌ لمصيركم إن سلكتم سبيلهم.



الدعوة: من عرف أصله الترابي، عرف ربه

بدأ صالح دعوته بمدخلٍ فلسفي رقيق، يذكر قومه بحقيقة نشأتهم من الأرض نفسها التي يتباهون بعمارتها:

يَقُومُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ۖ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنْ
الْأَرْضِ وَأَسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي
قَرِيبٌ مُجِيبٌ

سورة هود، الآية ٦١

من التفسير: فسّر المفسرون قوله "واستعمركم فيها" بمعنى: جعلكم غمارًا لها وأطال أعماركم فيها لتعمروها بالصلاح، من العمارة لا من الاستعمار بالمعنى الحديث للكلمة. وقد استنبط القرطبي من هذه الآية أصلًا مهمًا: أن عمارة الأرض مقصدٌ شرعي، لكنه مشروطٌ ألا يكون بديلًا عن عبادة الله، بل مسخرًا لها؛ فقد بدأ صالح دعوته بالعبادة أولاً ("اعبدوا الله")، ثم ذكر العمارة بعدها، لا العكس.

"إن ربي قريب مجيب" — ختامٌ لا يشبه بدايات الدعوات الأخرى؛ فبينما ابتداء هود بمنطق العقل، اختار صالح أن يختتم أولى كلماته بالقرب

الإلهي، وكأنه يهيئ قلوبهم لا لعقل يُقنَع فحسب، بل لقلبٍ يأنس ويطمئن. يقول الإمام الغزالي رحمه الله إن معرفة القرب الإلهي أول درجات السالكين، لأن مَنْ أيقن أن ربه قريب، هانت عليه المسافة بين المعصية والتوبة، إذ لا يحتاج رحلة طويلة ليعود، بل خطوة قلبٍ صادقة.



"قد كنت فينا مرجوًّا" — حين يتحول الحب القديم إلى خصومة

قَالُوا يَصْلِحْ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ
نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ

سورة هود، الآية ٦٢

هذه الجملة تحمل من الأسى أكثر مما تحمل من التهديد؛ فقد كان صالح، قبل الرسالة، رجلاً يُرتجى فيهم لحكمته ورجاحة عقله، فلما جاءهم بالحق، انقلب الرجاء ريباً. وصدق مَنْ قال إن أشد أنواع الأذى

ما يأتي ممزوجًا بذكرى المودة القديمة؛ فالغريب يُكذَّب بلا ألم، أما
القريب الذي عرفته محبًا فرفضك، فتكذيبه يجرح موضعًا لا يجرحه
تكذيب الغريب.

قَالَ يَقُومُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْتَةٍ مِّن رَّبِّي وَعَاسَىٰ مِنِّي
رَحْمَةً فَمَن يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ
تَخْسِيرٍ

سورة هود، الآية ٦٣



آية الناقة: حين يصير حيوانٌ مسكينٌ ميزانَ القلوب

هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ ءَايَةٌ فَذُرُّوْهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا
تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ

من التفسير: ذكر المفسرون أن إضافة الناقة إلى اسم الجلالة "ناقة الله" في الآية، تكريمٌ لها وتعظيمٌ لحرماتها، كما يُقال "بيت الله" للكعبة، لأن الله يملك ملكًا خاصًا يحتاجه، بل تشريعًا يستوجب من العباد رعايةً خاصة. وقد بين ابن كثير أن خروجها من الصخرة كان آيةً حسيةً مباشرة، معجزة ظاهرة لهم جميعًا، فلم يبق لهم عذر الشك في مصدرها الإلهي، وهذا ما يجعل جريمتهم لاحقًا أشد قبحًا: عقر آية رأوا بأعينهم أصل خروجها من الصخر الصلب.

هَذِهِ نَاقَةُ لَهَا شَرِبٌ وَلَكُمْ شَرِبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ • وَلَا تَمْسُوهَا
بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ يَوْمَ عَظِيمٍ

سورة الشعراء، الآيتان ١٥٥-١٥٦

ما أدق حكمة الله في اختيار هذا الابتلاء بالذات: لم يُطلب منهم فعلٌ شاق، بل ترك لهم كل شيء إلا الكف عن الأذى. يقول الإمام ابن القيم إن الله كثيرًا ما يبتلي عباده بأخف التكاليف ليظهر أثقل ما في قلوبهم من

كبرٍ أو حسد؛ فليست العبرة في صعوبة الأمر، بل في مدى استعداد النفس للانقياد ولو كان الأمر يسيّرًا.



العقر: جريمة واحدة، ونادمون بعدها بلا جدوى

فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَادِمِينَ • فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ

سورة الشعراء، الآيتان ١٥٧-١٥٨

"فأصبحوا نادمين" — لكن أي ندم هذا الذي يأتي بعد فوات الأوان؟ يقول الرافعي رحمه الله إن الندم الذي لا يسبق العقوبة بل يعقبها، ليس توبة، بل هو مجرد إحساس بالخسارة؛ والفارق بين الندم النافع والندم العقيم أن الأول يقود صاحبه إلى تغيير الفعل قبل أن يستحكم القضاء، والثاني لا يقود إلا إلى مزيد من الحسرة بعد أن يُغلق الباب.

فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعَدٌ غَيْرُ

مَكْذُوبٍ

سورة هود، الآية ٦٥



الصيحة: نهاية بلا ضجيج طويل

وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيرِهِمْ جُثَمِينَ •

كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ^{قُلْ} إِنَّا ثُمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا

لِثُمُودَ

سورة هود، الآيات ٦٧-٦٨

فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يٰ قَوْمُ لَقَدْ اَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ
لَكُمْ وَلٰكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحَ

سورة الأعراف، الآية ٧٩

"ولكن لا تحبون الناصحين" — خاتمة من أعظم ما وُصف به داء
القلوب المعرضة: أنها لا تكذب الحقيقة لأنها لا تفهمها، بل لأنها لا "تحب"
من يقولها. وهذه، كما يقول الغزالي، من أخطر حجب القلب عن الحق:
أن يكره صاحب الدواء لأن الدواء مرّ، بل لأنه يذكره بالداء.

خلاصة الفصل: حين يكون الابتلاء يسيراً، والقلب هو الصعب

لم تكن قصة صالح قصة إعجازٍ يُذهل العقل بصعوبته، بل قصة ابتلاءٍ يفضح
القلب ببساطته. ناقةٌ تشرب يوماً وتترك أياماً، لم تكن لتكلف قوماً يملكون
البيوت المنحوتة في الصخر شيئاً يُذكر، ومع ذلك عجزوا عن هذا اليسير. وفي
هذا أعظم عبرة يستخرجها القارئ المتأمل: أن أصعب الابتلاءات ليست تلك
التي تتطلب جهداً جسدياً، بل تلك التي تكشف مدى استعداد القلب للانقياد
حين لا عذر له في العصيان.

لوط عليه السلام

نبيّ الغربة الكاملة، والركن الشديد الذي لجأ إليه

مهاجرٌ مع عمّه، مرسلٌ إلى قومٍ لا شبيه لهم

ل

ان لوط عليه السلام ابن أخي إبراهيم، هاجر معه من العراق طلباً

لدين الله، حتى استقرّ في أرض سدوم بالشام، فبعثه الله نبياً لأهلها. وكانت هذه
الأمّة قد سبقت العالمين إلى فاحشةٍ لم يسبقهم إليها أحدٌ من قبل: "وَلَوْطًا إِذْ
قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفُحْشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ" (الأعراف ٨٠).



الدعوة: مواجهة الانحراف لا مثيل له

ج
إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ
مُّسْرِفُونَ

سورة الأعراف، الآية ٨١

إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ
الْمُنْكَرَ

سورة العنكبوت، الآية ٢٩ (مقتطفة)

"وتأتون في ناديكم المنكر" — أي يجاهرون بمنكرهم في مجالسهم العامة دون حياء، وهذا أشد درجات الانحراف: أن يفقد المجتمع حياءه الجمعي. ويُلاحظ أن القرآن قرن هذه الفاحشة بـ"قطع السبيل" في آية واحدة، وكأن انحراف الشهوة حين يستشري في أمة، يصاحبه دومًا انهيار في سائر الأخلاق.

وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ
قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ

سورة الأعراف، الآية ٨٢

"إنهم أناس يتطهرون" — قالوها ساخرين، لكنها في ميزان الحق شهادة لا تهمة؛ فحين ينقلب المجتمع بحيث يصبح التطهر عيبًا يُطرد صاحبه من أجله، فتلك علامة أكيدة على اكتمال الانتكاس. يقول ابن القيم رحمه الله إن من عقوبات المعصية أن تُقلب الموازين في نفس صاحبها، فيرى القبيح جميلًا والجميل قبيحًا.



ضيوف في بيت لوط: أشد ليلة في حياته

وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطَ السَّيِّئَةِ بَهِيمٌ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا
وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ

سورة هود، الآية ٧٧

قَالَ يَقُومُ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا
تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ • قَالُوا لَقَدْ
عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ

سورة هود، الآيتان ٧٨-٧٩

قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ

سورة هود، الآية ٨٠

من التفسير: يذكر الإمام ابن كثير في تفسيره أن معنى الآية: لو كان لي منكم قوة أدفعكم بها عن ضيفي، أو أنضمّ إلى عشيرة قوية تحميني منكم، لفعلتُ بكم ما تستحقّون من الزجر والعقوبة. وقد نقل ابن كثير والطبري كلاهما، بأسانيد إلى أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم زاد على هذا الحديث قوله: "ما بعث الله بعده من نبيٍّ إلا في ثروة من قومه" — أي عزّة ومنعة من عشيرته، وكأن الله عوّض الأنبياء من بعد لوط بهذه النعمة التي افتقدها هو في تلك الليلة. أما الإمام السعدي فيلخص المعنى بلطف: "وهذا بحسب الأسباب المحسوسة، وإلا فإنه يأوي إلى أقوى الأركان وهو الله".



من السنة الصحيحة: تعليق النبي ﷺ على حسرة لوط

روى الإمام البخاري (رقم ٣٣٨٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم علّق على هذه الكلمة بالذات بما يكشف عمق تعاطفه مع لوط:

«يرحم الله لوطاً، لقد كان يأوي إلى ركن شديد، ولو لبثتُ في السجن ما لبث يوسف، ثم أتاني الداعي لأجبتّه»

أخرجه البخاري (٣٣٨٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه

هذا الحديث من أرق ما ورد في تعاطف نبيٍّ مع نبيٍّ سبقه بقرون؛ فالنبي صلى الله عليه وسلم لم يكتفِ بالترحم على لوط، بل فسّر مقصده: أن "الركن الشديد" الذي تمناه لوط لم يكن سوى الله نفسه. ثم يزيد النبي صلى الله عليه وسلم المعنى عمقاً بمقارنة نفسه بيوسف عليه السلام: لو خُيّر بين الخروج الفوري من السجن أو البقاء فيه انتظاراً لتمام تبرئته كما فعل يوسف، لاختار السرعة في تلبية الداعي — تواضعاً منه صلى الله عليه وسلم أمام صبر يوسف الطويل.



النجاة والهلاك: مدينة تُقلب رأساً على عقب

قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ
بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتُكَ إِنَّهُ
مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ
بِقَرِيبٍ

فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلِيهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّنْ
سِجِّيلٍ مَّنْضُودٍ • مُّسَوِّمَةٌ عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ
بَبَعِيدٍ

سورة هود، الآيتان ٨٢-٨٣

من التفسير: ذكر ابن كثير في تفسيره، نقلاً عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن جبريل عليه السلام أدخل جناحه تحت مدائن قوم لوط فرفعها إلى السماء، حتى سمع أهل السماء نباح كلابهم وأصوات دجاجهم، ثم قلبها فجعل عاليها سافلها، وأتبعها بحجارة من "سجّيل" — وهي، كما بيّن المفسرون، طينٌ طُبِخَ بالنار حتى صار كالفخار المتحجّر. أما "منضود" فمعناها كما ذكر القرطبي: متتابعة يتلو بعضها بعضاً، لا تُخطئ أحداً من القوم أينما فرّ.

"جعلنا عاليها سافلها" — عقوبة رمزية بامتياز: قومٌ قلبوا الفطرة السوية رأساً على عقب في أخلاقهم، فقلبت أرضهم رأساً على عقب في

هلاكلهم. وختام الآية "وما هي من الظالمين ببعيد" تحذير يتجاوز حدود الزمان والمكان.

خلاصة الفصل: وحدة النبي، وقوة اللجوء إلى الله

لم يكن ابتلاء لوط في نوع القوم الذين أرسل إليهم فحسب، بل في وحدته الكاملة أمامهم. ومع ذلك، لم يكن لوط عاجزاً حين قال "لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد"، بل كان في تلك اللحظة بالذات أقرب ما يكون إلى الركن الشديد الحقيقي، الذي جاءه نصره في الصباح على هيئة ملائكة.

إبراهيم عليه السلام (١)

الفتى الذي واجه أباه وقومه وحده، و خليل الرحمن

حوار مع الأب: أرق مواجهة في القرآن

ن بين كل حوارات الأنبياء مع أقوامهم، يبقى حوار إبراهيم مع أبيه
آزر الأكثر إيلاّمًا، لأنه لا يواجه فيه غريبًا، بل أقرب الناس إليه. ويسجل القرآن
هذا الحوار بتدرّج نفسي بديع، إذ يفتتحه إبراهيم بأرق نداء ممكن — "يا أبت"
— لا "يا آزر":

يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْءٌ
• يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي
أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا

سورة مريم، الآيتان ٤٢-٤٣

تكرار نداء "يا أبت" أربع مرات متتالية في خمس آيات ليس تكرارًا لفظيًا عابرًا، بل هو — كما يشير الرافي في تحليله لجرس الكلام القرآني — تكرارٌ يحمل وظيفة عاطفية: كل نداء يُذكر الأب بأن المتكلم ابنه، لا خصمه. ولم يقل "عندي علم"، بل "جاءني من العلم ما لم يأتك" — بتواضع يزيل عن الحوار أي شبهة تعالٍ.

قَالَ أَرَأَيْبُ أَنْتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ
وَأَهْجُرَنِي مَلِيًّا

سورة مريم، الآية ٤٦

قَالَ سَلِّمْ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا

سورة مريم، الآية ٤٧

من التفسير: بيّن المفسرون أن هذا الاستغفار من إبراهيم لأبيه كان قبل أن يتبين له أنه عدو لله ومات على شركه، ثم تبرأ منه بعد ذلك امتثالاً لقوله تعالى: "وَمَا

كَانَ اسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ" (التوبة ١١٤). فليس في هذا الاستغفار مخالفة لعقيدة البراءة من الشرك، بل هو وفاءً بوعيد سابق انتهى أثره حين تبيّنت الحقيقة.



مواجهة الأصنام: "بل فعله كبيرهم هذا"

إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَكِفُونَ
 • قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عُبْدِينَ • قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ
 وَءَابَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ

سورة الأنبياء، الآيات ٥٢-٥٤

"وجدنا آباءنا لها عابدين" — أضعف حجة يمكن أن يحتج بها عقل، ومع ذلك أقوى حجة تتشبث بها النفوس المقلدة عبر التاريخ؛ فالتقليد الأعمى للموروث، كما يقول ابن القيم، أخطر آفات العقل.

فَجَعَلَهُمْ جُودًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ

سورة الأنبياء، الآية ٥٨

قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا ابْنِ هِمْ . قَالَ بَلْ فَعَلَهُ
كَبِيرُهُمْ هَذَا فَسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ . فَرَجَعُوا إِلَى
أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ . ثُمَّ نَكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ
لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ

سورة الأنبياء، الآيات ٦٢-٦٥

لحظة "فرجعوا إلى أنفسهم" من أدق اللحظات النفسية في القرآن كله: للحظة واحدة، أضاءت فطرتهم فأدركوا الحقيقة، ثم "نكسوا على رؤوسهم" — عادوا إلى عنادهم القديم فور أن استعادوا وعيهم الاجتماعي. يقول الغزالي إن نور الفطرة لا يُطفأ كلياً في أشد القلوب

عنادًا، لكنه قد يَوْمُضُ لحظة ثم يُطْمَسُ عمدًا حين يتعارض مع كبرياء النفس.



"يا نار كوني بردًا وسلامًا": أعظم إنجاء في القصص القرآني

قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا الْمُهْتَكِرَ إِن كُنتُمْ فَعِلِينَ

سورة الأنبياء، الآية ٦٨

قُلْنَا يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ

سورة الأنبياء، الآية ٦٩

من التفسير: نبّه المفسرون، ومنهم ابن كثير، إلى دقة بالغة في هذه الآية: لم يقل الله "كوني بردًا" فقط، بل أضاف "وسلامًا"؛ لأن البرد المطلق قد يكون مؤذيًا كالنار تمامًا، فجاءت "سلامًا" لتقيّد البرودة بما لا يضر إبراهيم البتة.

هذا المشهد يمثل ذروة اليقين الإبراهيمي: يُروى أن جبريل عليه السلام عرض عليه العون وهو يُقذّف في النار فقال: "أما إليك فلا"، مكتفيًا بالله وحده دون واسطة حتى المَلَك. وقد استحضر ابن القيم هذا الموقف كثيرًا في كلامه عن التوكل الخالص.

إبراهيم عليه السلام (٢)

من "إني ذاهب إلى ربي" إلى بناء بيته الأول

الهجرة: "إني ذاهب إلى ربي سيهدين"

وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّدِينَ • رَبِّ هَبْ لِي مِنْ
الصَّالِحِينَ • فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ

سورة الصافات، الآيات ٩٩-١٠١

"إني ذاهب إلى ربي" — لم يقل "ذاهب إلى أرض أخرى"، بل حدّد وجهته بربه وحده. يقول ابن القيم إن هذا نموذج "الهجرة إلى الله" التي هي أصل كل هجرة صادقة.



من السنة الصحيحة: هاجر وإسماعيل في وادٍ غير ذي زرع

روى الإمام البخاري في حديثٍ طويل عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، أن إبراهيم قدم بهاجر وابنها إسماعيل الرضيع إلى موضع مكة، حيث لا ماء فيها ولا أحد، فوضعهما عند موضع البيت قرب زمزم، ثم ولّى راجعًا. فتبعته هاجر وقالت: "يا إبراهيم، أين تذهب وتتركنا في هذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء؟" حتى سألته: "اللَّهُ أمرك بهذا؟" فقال: "نعم"، فقالت: "إِذَا لَا يُضَيِّعُنَا".

فلما نفذ الماء من عندها، وعطش إسماعيل، خرجت هاجر تبحث عن غوث، فسعت بين جبلي الصفا والمروة سبع مرات، حتى سمعت صوتًا فقالت: "صه" تريد نفسها، ثم قالت: "قد أسمعته"، إن كان عندك غَوَاثُ". فإذا هي بالملك عند موضع زمزم، يبحث بعقبه — أو بجناحه — في الأرض حتى ظهر الماء.

من حديث ابن عباس رضي الله عنهما الطويل: «...فجعلت تحوضه، وتقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء في سقائها، وهو يفور بعد ما تغرف»
أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، عن ابن عباس رضي الله عنهما

يكشف الحديث ما وراء دعاء إبراهيم المختصر ("ربنا إني أسكنت من ذريتني بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرم" - إبراهيم ٣٧) من تفاصيل الشجاعة الأنثوية النادرة: امرأة، حين تيقنت أن ترك زوجها لها كان بأمر

الله، لم تطلب مزيدًا من التبرير، بل قالت كلمة واحدة تختصر التوحيد الخالص: "إِذَا لَا يُضَيِّعُنَا". هذا اليقين هو نفسه — كما يشير الغزالي في وصفه لمقامات المتوكلين — أعلى درجة يمكن أن يبلغها القلب.



بناء الكعبة: دعاءٌ يُختصر فيه تاريخ أمة

وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا^ص
إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ • رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ
ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكًا وَتُبْ عَلَيْنَا^ص إِنَّكَ أَنْتَ
التَّوَّابُ الرَّحِيمُ

سورة البقرة، الآيتان ١٢٧-١٢٨

ما أعجب أن يُختتم بناء أقدس بيتٍ في الأرض بدعاء قبول، لا بإعلان إنجاز! لم يقل إبراهيم "قد بنينا بيتك"، بل قال "ربنا تقبل منا" — خشيةً من أن يكون العمل، مهما عظم، غير مقبول إن خالطته شائبة.



الذبح العظيم: أعلى درجات التسليم بين أبٍ وابنه

فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنِيْٓ اِنِّىْ اَرَىٰ فِى الْمَنَامِ اَنِّىْ
اَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يٰٓاَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِيْ
اِنْ شَاءَ اللّٰهُ مِنَ الصّٰبِرِيْنَ

سورة الصافات، الآية ١٠٢

"فانظر ماذا ترى" — لم يفرض إبراهيم على ابنه القرار، بل استشاره في أمرٍ يخص حياته. وردَّ إسماعيل "ستجديني إن شاء الله من الصابرين" أضاف الاستثناء بمشيئة الله تواضعًا، لا شكًا.

فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ • وَنَدَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ • قَدْ صَدَّقْتَ
الرُّءْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ • إِنَّ هَذَا لَهُو الْبَلَاءُ الْمُبِينُ
• وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ

سورة الصافات، الآيات ١٠٣-١٠٧

من التفسير: اختلف المفسرون في تعيين الذبيح: هل هو إسماعيل أم إسحاق؟ ورجَّح جمعٌ من المحققين، منهم ابن كثير، أنه إسماعيل عليه السلام، اعتمادًا على سياق الآيات في سورة الصافات، إذ ورد ذكر البشارة بإسحاق بعد قصة الذبح مباشرة (الصافات ١١٢)، مما يدل على أن الذبيح كان قبل ولادة إسحاق. والله أعلم بحقيقة الأمر.

"قد صدّقت الرؤيا" — لم يقل الله "قد نجّيناك من الذبح"، بل ركّز على أن الاختبار الحقيقي كان في تصديق الرؤيا وتنفيذها. ويقول الرافعي إن أعظم اللحظات الإيمانية ليست تلك التي يُستجاب فيها الدعاء، بل تلك التي يُقدّم فيها القلب كاملاً لأمر الله قبل أن يُعرف مصيره.

خلاصة الفصل: خليل الرحمن

من مواجهة أبيه بالحكمة والرحمة، إلى تحطيم الأصنام بلا خوف، إلى النار التي صارت بردًا وسلامًا، إلى الهجرة الكاملة لله، إلى ترك زوجته وابنه في وادٍ لا زرع فيه توكلًا على وعد الله، إلى بناء أول بيتٍ للتوحيد في الأرض، إلى تسليم ابنه للذبح طاعةً محضة — تتكامل صورة إبراهيم عليه السلام بوصفه النموذج الأعلى للتسليم الإيماني الذي استحق به لقبًا لم يُطلق على نبيٍّ سواه: خليل الرحمن.

إسماعيل، إسحاق، ويعقوب

ثلاثة أنبياء من بيت واحد، وبشارةً قوبلت بالضحك والعجب

إسماعيل: صادق الوعد

وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ
رَسُولًا نَبِيًّا ۝ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ
عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا

سورة مريم، الآيتان ٥٤-٥٥

"صادق الوعد" — وصفٌ اختير له بعينه، وقد رأينا مصداقه في مشهد الذبح حين قال "ستجدني إن شاء الله من الصابرين" فوفى بوعده كاملاً. يقول الغزالي إن صدق الوعد من أعلى شواهد صدق الإيمان.



إسحاق ويعقوب: بشارة استقبلت بالضحك والدهشة

وَأَمْرَاتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَلَبَسْنَهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ
 يَعْقُوبَ • قَالَتْ يَوِیْلَتِي ۖ أَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ
 هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ • قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ
 وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ

سورة هود، الآيات ٧١-٧٣

من التفسير: اختلف المفسرون في سبب ضحك سارة: فمنهم من قال ضحكت
 سرورًا لما زال عنها الخوف من الضيوف حين علمت أنهم رسل، ومنهم من قال
 ضحكت تعجبًا من البشارة بالولد على كبر سنّها. ولافتٌ أن البشارة جاءت
 مزدوجة: بإسحاق أولًا، ثم بـيعقوب "من وراء إسحاق" أي حفيدًا.

"أتعجبين من أمر الله" — سؤال لطيف للتوبيخ، يذكر سارة بأن العجب من قدرة الله ليس موضعه الصحيح. ويُختم الرد بدعاءٍ يحمل معنى عميقاً: "رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت".

وَبَشِّرْهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيٍّ اَمِّنَ الصَّالِحِينَ • وَبُرْكَاتٍ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ
وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مَبِينٌ

سورة الصافات، الآيتان ١١٢-١١٣

"ومن ذريتهما محسنٌ وظالمٌ لنفسه مبينٌ" — تصريحٌ قرآني نادر بأن بركة النبوة في نسل معين لا تعني عصمة كل الذرية من الانحراف. يقول ابن القيم إن هذا التوازن يقطع الطريق على أي غرور بالنسب.



يعقوب: إمامٌ من "النافلة"

وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۚ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ •
وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا

سورة الأنبياء، الآيات ٧٢-٧٣

وصف "نافلة" ليعقوب لطيفٌ: فإسحاق كان هو المطلوب بالدعاء، ويعقوب جاء زيادةً لم تُطلَب صراحة، عطاءً فوق ما سُئِل. وسيكون ليعقوب عليه السلام نصيبٌ كبير من قصص القرآن، ستتكشف تفاصيله حين نروي قصة ابنه يوسف.

خلاصة الفصل: بيتٌ واحد، وسلسلة نبوة متصلة

من إبراهيم إلى إسماعيل وإسحاق، ثم يعقوب من بعدهما، تتكشف سلسلة نبوة متصلة الحلقات، تحمل معنى عميقاً: أن الهداية ليست فردية منقطعة، بل مشروعٌ ممتد عبر الأجيال.

يوسف عليه السلام (١)

أحسن القصص: من الرؤيا الصادقة إلى قاع البئر

"أحسن القصص": لماذا وُصفت قصة يوسف بهذا الوصف؟

صف الله قصة يوسف بنفسه بأنها "أحسن القصص" (يوسف ٣)،

وهي السورة الوحيدة في القرآن التي استوعبت قصة نبيٍّ واحد من أولها إلى آخرها في سياقٍ متصل.



الرؤيا: أحد عشر كوبًا يسجدون

إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا
وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ

سورة يوسف، الآية ٤

قَالَ يَبْنِي لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَيَّ إِخْوَتَكَ فَيَكِيدُوا لَكَ
كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ

سورة يوسف، الآية ٥

حكمة يعقوب هنا بالغة الدقة: لم ينكر الرؤيا، بل حذر من إشاعتها. يقول الغزالي إن من الحكمة كتمان النعمة عمّن يُخشى حسده.



حسد الإخوة: "اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً"

إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ
إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ • اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا
يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمَ الصَّالِحِينَ

سورة يوسف، الآيتان ٨-٩

"وتكونوا من بعده قوماً صالحين" — عبارة تكشف خداع النفس البشرية حين تبرر جريمتها. يعلق ابن القيم على مثل هذا الاستدلال الفاسد بأن النفس الأمارة بالسوء بارعة في اختلاق مسوغات أخلاقية لأفعالها.

قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيِّبٍ الْجَبِّ
يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ



خداع الأب: كذبة ملفقة بالدموع والدم

قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَصِحُونَ •
أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَع وَيَلْعَب وَإِنَّا لَهُ لَحَفِظُونَ

سورة يوسف، الآيتان ١١-١٢

قَالَ إِنِّي لِيَحْزُنِّي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ
وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ

سورة يوسف، الآية ١٣

من المفارقات المؤلمة أن يعقوب خاف بالضبط من العذر الذي سيخلقه لاحقاً: أكل الذئب. يقول الرافي إن القلب المؤمن يملك حساً نبوياً خفياً يستشعر به الخطر قبل وقوعه.



الجُبُّ: وحيُّ في أحلك لحظة

ج
فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ، وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَبِ الْجُبِّ
وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ

سورة يوسف، الآية ١٥

من التفسير: ذكر المفسرون أن هذا الوحي إلى يوسف في قاع الجُبِّ كان تثبيئاً وتطميناً من الله له في أحلك لحظة من حياته.

وَجَاءُوا آبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ • قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ
وَتَرَكَنا يَوْسُفَ عِنْدَ مَتْعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا
وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ • وَجَاءُوا عَلَى قَيْصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ

سورة يوسف، الآيات ١٦-١٨ (مقتطفة)

"وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين" — جملةٌ عجيبةٌ يقولها الكاذب نفسه. وقد أخطأوا في تفصيلٍ دقيقٍ فضح كذبهم: القميص أتوا عليه بدِّمٍ كاذب، لكنه كان سليماً غير ممزَّق، مما يناقض ادِّعاء افتراس الذئب.

قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبِرْ جَمِيلًا وَاللَّهُ
الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ

سورة يوسف، الآية ١٨ (تمتتها)

من التفسير: فسّر المفسرون "الصبر الجميل" بأنه الصبر الذي لا شكوى فيه لغير الله، ولا جزع يظهر على صاحبه أمام الخلق.



من الجبّ إلى مصر: بيعُ بَئْنٍ بخس

وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ
يَبْشِرِي هَذَا غُلْمٌ وَأَسْرُوهُ بَضْعَةً وَلِلَّهِ عِلْمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ •
وَشَرَوْهُ بِثَمْنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ

سورة يوسف، الآيات ٢٠-١٩

"دراهم معدودة" — أي عدد قليل، إذ باعوه رخيصةً زهداً فيه. وفي ختام الآية تذييلٌ بالغ الدلالة: "والله عليم بما يعملون" — تذكيرٌ بأن كل هذا التآمر لم يخف لحظة واحدة عن علم الله.

[يتبع الفصل الثامن: الجزء الثاني — يوسف في بيت العزيز، والفتنة الكبرى]

يوسف عليه السلام (٢)

الفتنة الكبرى، والسجن الذي اختاره على المعصية

التمكين في مصر

وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لَأَمْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى
أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي
الْأَرْضِ

سورة يوسف، الآية ٢١



المراودة: أعظم امتحانٍ للعفة في القرآن

وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ ۖ وَغَلَقَتِ الْأَبْوَابَ
وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ
إِنَّهُ لَا يَفْلَحُ الظَّالِمُونَ

سورة يوسف، الآية ٢٣

ردّ يوسف "معاذ الله" جمع بين ثلاث حجج: التعوذ بالله، والاعتراف
بجميل سيده، ثم القاعدة الكلية "لا يفلح الظالمون". يقول الغزالي إن
دفع الفتنة القوية يحتاج إلى تعدد أسباب الثبات لا سببًا واحدًا.

وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ
لَنَصْرَفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ

سورة يوسف، الآية ٢٤

من التفسير: بين جمهور المفسرين أن "هم" يوسف هنا كان همًا فطريًا عابرًا لم يتجاوز حديث النفس، وقد صُرف عنه فورًا بمجرد رؤية "برهان ربه"، والذي لم يُحدّد نوعه في القرآن، فالأولى الوقوف عند ما دلّ عليه ظاهر اللفظ.

وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَيْصَهُ^ج مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا
الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ
أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ

سورة يوسف، الآية ٢٥

شهادة القميص

قَالَ هِيَ رَوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي^ج وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ
كَانَ قَيْصُهُ^ج قَدْ مِّنْ قَبْلِ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَذِبِينَ • وَإِنْ
كَانَ قَيْصُهُ^ج قَدْ مِّنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ • فَلَمَّا

رَأَىٰ قَيْصَهُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ
عَظِيمٌ

سورة يوسف، الآيات ٢٦-٢٨

هذا من أدق نماذج الاستدلال المنطقي في القرآن كله: قرينة مادية
بسيطة تحسم قضية لا شاهد عدل مباشرًا عليها.

يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَٰذَا وَأَسْتَغْفِرِي لِدُنْيِكِ إِنَّكَ كُنتِ
مِنَ الْخَاطِئِينَ

سورة يوسف، الآية ٢٩



فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَكًا
وَأَتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا
رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حُشِّ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا
إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ

سورة يوسف، الآية ٣١

قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَنِي فِيهِ وَلَقَدْ رُودَتْهُ عَن نَّفْسِهِ
فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُ لَيُسْجَنَ وَلَيَكُونَنَّ
أَلَصَّغِيرِينَ

سورة يوسف، الآية ٣٢



اختيار يوسف: السجن أحب إليّ من المعصية

قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ
عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ • فَاسْتَجَابَ
لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

سورة يوسف، الآيات ٣٣-٣٤

"وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين" — اعتراف
نبيي بالغ التواضع: يوسف عليه السلام لم يترك نفسه بالاستغناء عن
معوذة الله. يقول ابن القيم إن هذا الإقرار هو عين الأدب مع الله.

ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيْسَجْنَهُ حَتَّىٰ حِينٍ

سورة يوسف، الآية ٣٥



في السجن: داعيةٌ حتى خلف القضبان

يُصِحِّي السِّجْنَ ءَارْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَحْدُ
الْقَهَّارُ • مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمِيتُمُوهَا أَنْتُمْ
وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ

سورة يوسف، الآيات ٣٩-٤٠

لم يبدأ يوسف بتفسير الرؤيا، بل قدّم لهما التوحيد أولاً، وكأنه يعلمنا أن
أعظم ما يملكه الداعية، حتى في أضيق ظروفه، هو دعوته.

وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ
الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ

سورة يوسف، الآية ٤٢

من التفسير: اختلف المفسرون في مرجع الضمير في "فأنساه": ف قيل يعود على الساقى الناجى، وقيل يعود على يوسف نفسه، أى أنساه الشيطان ذكر الله فاستعان بمخلوق بدل التوكل الكامل. ورجَّح جمعُ من المحققين، منهم ابن القيم، المعنى الثانى، مستدلين بأثرٍ مرويٍّ عن ابن عباس أن يوسف قال: "لو لم أقل اذكرني عند ربك ما لبثتُ في السجن ما لبثت".

[يتبع الفصل الثامن: الجزء الثالث والأخير — رؤيا الملك، والعرش، ولقاء الأب]

يوسف عليه السلام (٣)

من رؤيا الملك إلى اكتمال الرؤيا الأولى

رؤيا الملك

وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ ^ط فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ
رَبِّكَ فَسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَّعَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي
بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ^ج

سورة يوسف، الآية ٥٠

وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي ^ج إِنَّ النِّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ
رَبِّي ^ج إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ^ج

نبيُّ ثبتت براءته بشهادة الجميع، ومع ذلك لا يزكي نفسه تزكية مطلقة.
يقول ابن القيم إن هذه الآية أصلٌ عظيم في معرفة النفس.

"اجعلني على خزائن الأرض"

قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ ^ص إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ^و

سورة يوسف، الآية ٥٥

الإخوة يعودون

قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا ءَامَنُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ
فَإِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ حَفِظَ ^ص أَوْ هُوَ أَرْحَمُ الرَّحِمِينَ

سورة يوسف، الآية ٦٤

وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَىٰٓ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا
أُخُوكَ فَلَا تَبْتِئْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ

سورة يوسف، الآية ٦٩

كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ
إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَأٍ ۖ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي
عِلْمٍ عَلِيمٌ

سورة يوسف، الآية ٧٦

من التفسير: بيّن المفسرون أن "كذلك كدنا ليوسف" لا يعني كيدًا بمعنى الخداع المذموم، بل تدبيرًا محكمًا بإذن الله ليصل يوسف لمقصده المشروع بطريقة تتفق مع قانون البلد.

وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَأَبْيَضَتْ عَيْنَاهُ مِنْ
الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ

سورة يوسف، الآية ٨٤

"فهو كظيم" — يكظم حزنه، لا يُظهره جزعًا. هذا هو "الصبر الجميل"
مطبّقًا عمليًا بعد عشرات السنين.

يٰٓبَنِيَّ اذْهَبُوْا فَتَحَسَّسُوْا مِنْ يُوسُفَ وَاَخِيْهِ وَلَا تَاۡتُسُوْا مِنْ
رَّوْحِ اللّٰهِ اِنَّهٗ ^ط لَا يَاۡتِيْكُمْ مِنْ رَّوْحِ اللّٰهِ اِلَّا الْقَوْمُ الْكٰفِرُوْنَ

سورة يوسف، الآية ٨٧

اللقاء الكبير: "أنا يوسف وهذا أخي"

قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ •
قَالُوا أَأَنْتَ لَأَنْتَ يُونُسُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ
مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مِنْ يَتَى وَيَصْبِرُ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ
الْمُحْسِنِينَ

سورة يوسف، الآيات ٨٩-٩٠

لم ينتقم يوسف من إخوته رغم قدرته الكاملة على ذلك. يقول الراجعي
إن أعظم لحظات القوة هي لحظة القدرة على الانتقام مع اختيار العفو.

اكتمال الرؤيا

أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا

وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ^طلَوْلَا
أَنْ تَفِدُونِ ^ط

فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ ^ط
أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ

وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا ^ط
تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ ^ط
بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ

ج ج
أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ
إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ

سورة يوسف، الآية ١٠٠

"إن ربي لطيف لما يشاء" — كلمة الختام التي تختصر القصة كلها. كل ما بدا ظلمًا وقسوة وغربة على مدى عشرين عامًا لم يكن سوى خيوط في نسيج لطف إلهي خفي.

ج
رَبِّ قَدْ أَتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ
فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ
تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ

سورة يوسف، الآية ١٠١

في ذروة الملك والتمكين، لم يسأل يوسف مزيدًا من الدنيا، بل سأل حسن الخاتمة. يعلّق الغزالي على مثل هذا الدعاء بأنه علامة اكتمال المعرفة بالله.

خلاصة فصل يوسف: العبرة الكبرى

من رؤيا الطفولة إلى عرش مصر، مرّت قصة يوسف بكل صنوف الابتلاء. ولعل أعمق ما تعلّمه هذا الفصل: أن الفرج الإلهي قد يتأخر عقودًا، لكنه حين يأتي، يأتي بصورة تفوق كل تصوّر بشري لحكمة التأخير: "إن ربي لطيف لما يشاء".

أيوب عليه السلام

نموذج الصبر الخالد، وشكر لا يقل عن صبره

الدعاء: شكوى بلا تسخط

وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ
الرَّحِيمِينَ

سورة الأنبياء، الآية ٨٣

من التفسير: نبّه المفسرون إلى دقة بالغة في صياغة هذا الدعاء: لم يقل أيوب "اشفني" صراحة، بل اكتفى بذكر حاله مقروناً بذكر صفة الله، تاركاً التدبير لله. وقد استدلل العلماء بهذا الدعاء على أن الشكوى إلى الله لا تتنافى مع الصبر المحمود.

يقول الغزالي إن الفرق بين الشكوى المذمومة والمحمودة أن الأولى شكوى من الله إلى الخلق، والثانية شكوى إلى الله من حال النفس.



الاستجابة: عينُ شفاءٍ من الأرض

أَرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسِلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ

سورة ص، الآية ٤٢

فَاسْتَجِبْنَا لَهُ فَاكْشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ
مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَبِيدِ

سورة الأنبياء، الآية ٨٤



وَحْذُ بِيَدِكَ ضِعْثًا فَاصْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنُثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ
صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ

سورة ص، الآية ٤٤

من التفسير: بين المفسرون أن "الضَّغْثَ" حزمة من العيدان الرقيقة، أمره الله أن يضرب بها ضربة واحدة، فتتحقق صورة اليمين دون أذى فعلي حقيقي.



من السنة الصحيحة: جراد من ذهب

«بينما أيوبُ يغتسلُ عرياناً، خرَّ عليه رجلٌ جرادٍ من ذهب، فجعل يبحي في ثوبه، فناداه ربُّه: يا أيوبُ، ألم أكن أغنيْتُك عما ترى؟ قال: بلى يا ربَّ، ولكن لا غنى لي عن بركتك»

أخرجه البخاري (٣٣٩١) عن أبي هريرة رضي الله عنه

هذا الحديث يقدّم صورة أيوب بعد الشفاء: رجلٌ أُغِدِّقَت عليه النعمة
ومع ذلك حريصٌ على كل بركة شكرًا لا طمعًا.

خلاصة الفصل: الصبر الذي صار مضرِباً للأمثال

الحقيقة أن أيوب كان نموذجًا للعبودية الكاملة في كل حال: شكوى محمودة
بلا تسخط في الضرّ، وصبرٌ يقود إلى الأوبة، وشكرٌ لا يفتن حتى في أوج النعمة.

شعيب عليه السلام

خطيب الأنبياء، ونبي العدل في الميزان

التوحيد مقرونًا بالعدل الاقتصادي

وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبٌ ۖ قَالَ يَبْنَؤُا^ج عِبَادُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ
مِّنْ إِلَهِ غَيْرِهِ ۖ قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ^ص مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَآوَفُوا^ص الْكَيْلَ
وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا^ص النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ

سورة الأعراف، الآية ٨٥

من التفسير: يلاحظ المفسرون أن شعيبًا هو النبي الوحيد الذي اقترنت دعوته
للتوحيد بتفصيل اقتصادي دقيق منذ أول خطابه، وهذا يدل، كما ذكر ابن كثير،

على أن قوم مدين كانوا موحدين نسبياً، لكن انحرافهم الأكبر كان في المعاملات المالية.

يقول ابن القيم إن ربط التوحيد بالعدل في المعاملة من جوهر الدين: فمن وحد الله بقلبه، لزمه أن يعدل في ميزانه.



"أصلاتك تأمرك؟"

قَالُوا يٰشُعَيْبُ أَصْلَوْتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ
أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ

سورة هود، الآية ٨٧

"إنك لأنت الحليم الرشيد" — قالوها ساخرين لا مادحين. وسؤالهم "أصلاتك تأمرك؟" يفضح عقلية فصل الشرائع عن الالتزام الأخلاقي.



"أرهطي أعزّ عليكم من الله؟"

قَالُوا يَشْعِبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرُّكَ فِيْنَا
ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَّحْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ

سورة هود، الآية ٩١

قَالَ يَقُومُ أَرْهَطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ
ظَهْرِي إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ

سورة هود، الآية ٩٢

يقول الرافعي إن جمال هذا السؤال البلاغي يكمن في قلبه للموازن
المعلنة عندهم: عظموا عشيرته لا خوفًا من الله، بل خوفًا من انتقام
بشري محدود.



النهاية: صيحةٌ ورجفة

وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا ۚ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ
مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيرِهِمْ
جُثَمِينَ

سورة هود، الآية ٩٤

خلاصة الفصل: الدين لا ينفصل عن الميزان

يستحق شعيب عليه السلام لقب "خطيب الأنبياء". والعبرة الأعمق في قصته: أن الدين الحق لا ينفصل عن ميزان السوق، وقد ختم دعوته بجملة تصلح شعارًا لكل مُصلح: "إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت، وما توفيقي إلا بالله".

موسى عليه السلام (١)

من تابوت في اليمّ إلى فرارٍ إلى مدين

الوحي إلى أمّ: "فألقيه في اليمّ ولا تخافي"

ف

ي زمن فرعون، حين بلغ الطغيان أوجّه بقتل كل مولود ذكر

من بني إسرائيل، وُلد موسى في أشد الظروف خطرًا، فأوحى الله إلى أمّه — لا
بوحي نبوة، بل وحي إلهام — بأمرٍ يبدو للعقل البشري انتحارًا للأمل:

وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ
فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِّنَ
الْمُرْسَلِينَ

سورة القصص، الآية ٧

ثلاثة أوامر وثلاث بشارات في آية واحدة. يقول الغزالي إن أعجب درجات التوكل أن يُؤمر القلب بفعلٍ يبدو ظاهره هلاكًا، ومع ذلك يُطاع الأمر لمجرد أنه من الله.

فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ
وَهُمَّنَّ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ

سورة القصص، الآية ٨

"ليكون لهم عدوًا وحزنًا" — بأيديهم بالذات، ربّى فرعون العدو الذي سيقضي على ملكهم. يستحضر ابن القيم هذا المشهد في حديثه عن غفلة الظالمين عن مكر الله الخفي.



وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فِرْعَاوْنَ^ط إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن
رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ

سورة القصص، الآية ١٠

وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ
أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصِاحُونَ • فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ
أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ

سورة القصص، الآيات ١٢-١٣

هكذا تحقق الوعد بحرفيته الكاملة: عاد إليها وهو رضيع، في قصر
عدوّه بالذات، وبأجرٍ يُدفع لها دون أن يعلم فرعون. يقول الرافعي إن
هذا التفصيل من أروع مفارقات التدبير الإلهي.



الوكزة القاتلة: خطأ في لحظة غضب، وتوبةٌ فورية

فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ • قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي
فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ

سورة القصص، الآيات ١٥-١٦

من التفسير: بين المفسرون أن هذه الوكزة لم تكن قتلاً متعمداً، بل ضربة أدت لموت الرجل دون قصد، ولذلك سارع بالاستغفار فوراً. ويُعدّ هذا الموقف دليلاً على أن الأنبياء ليسوا معصومين من الوقوع في الخطأ غير المتعمد.

فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَمُوسَى -
 أَرِيدُ أَنْ تُقَتِّلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ ^ص إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ
 تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ

سورة القصص، الآية ١٩

وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَمُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ
 يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ

سورة القصص، الآية ٢٠



فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ
الظَّالِمِينَ • وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي
سَوَاءَ السَّبِيلِ

سورة القصص، الآيات ٢١-٢٢

وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا
نَسْقِي حَتَّىٰ يُصَدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ • فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ
تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ

سورة القصص، الآيات ٢٣-٢٤

"رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ" — دعاء في منتهى التواضع.
يقول الغزالي إن هذا الدعاء نموذج للفقر الصادق إلى الله.

فَجَاءَهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ
لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا... قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ
اسْتَعِجْهُ إِنَّا نَحْنُ خَيْرٌ مَنِ اسْتَعَجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ

سورة القصص، الآيات ٢٥-٢٦

من التفسير: استنبط العلماء من قول إحدى الفتاتين "إن خير من استأجرت القوي الأمين" أصلاً مهماً في اختيار الموظف: أن يجمع بين القوة والأمانة.

قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ
تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حَجَجٌ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ
أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ

سورة القصص، الآية ٢٧

خلاصة الجزء الأول

من تابوت في نهر النيل، إلى قصر فرعون، إلى فرارٍ خائف عبر الصحراء، إلى عقد زواج مبارك في مدين — تكشف هذه المرحلة أن أشدّ لحظات الخطر تحمل بذور أعظم لحظات النجاة.

[يتبع الفصل الحادي عشر: الجزء الثاني — النار عند الطور، والنداء الأول]

موسى عليه السلام (٢)

نارٌ عند الطور، ونداءٌ يُعيد صياغة حياة رجل

"آنَسْتُ نَارًا"

إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا عَلَيَّ
ءَاتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدُ عَلَى النَّارِ هُدًى

سورة طه، الآية ١٠

"أو أجد على النار هدى" — طلب دنيوي بسيط تحوّل بلا مقدمات إلى
أعظم هداية عرفتها البشرية. يقول ابن القيم إن هذا من أدق أمثلة لطف
الله الخفي.



النداء: "اخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى"

فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَمُوسَى • إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ
بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى • وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى
• إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي

سورة طه، الآيات ١١-١٤

من التفسير: ذكر المفسرون في أمر خلع النعلين أقوالاً، منها تعظيم المكان المقدس،
وأول ما بدأ به الخطاب الإلهي كان التوحيد مقروناً بالصلاة.



العصا واليد: آيتان قبل المهمة

وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يُمُوسَى • قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيَّهَا
وَأَهْشُرُ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِي فِيهَا مَثَرَبٌ أُخْرَى • قَالَ أَلْقِهَا
يُمُوسَى • فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى • قَالَ خُذْهَا وَلَا
تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى

سورة طه، الآيات ١٧-٢١

يقول الغزالي إن حكمة هذا السؤال البسيط أن يستأنس موسى بالسؤال
قبل أن يُطلب منه أمرٌ يفوق طاقة الألفة.

وَأَضْمَمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ؕ آيَةً
أُخْرَى • لِنُرِيكَ مِنْ ءَايَاتِنَا الْكُبْرَى

سورة طه، الآيات ٢٢-٢٣



التكليف: "اذهب إلى فرعون إنه طغى"

أَذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ

سورة طه، الآية ٢٤

قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي • وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي • وَاحْلُلْ
عُقْدَةً مِن لِّسَانِي • يَفْقَهُوا قَوْلِي • وَاجْعَلْ لِّي وَزِيرًا مِّنْ
أَهْلِي • هَارُونَ أَخِي • اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي • وَأَشْرِكْهُ فِي
أَمْرِي • كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا • وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا • إِنَّكَ كُنْتَ
بِنَا بَصِيرًا

سورة طه، الآيات ٢٥-٣٥

من التفسير: لاحظ المفسرون أن موسى لم يطلب رفع المهمة عنه، بل طلب أربعة أمور تُيسرها لا تُلغيها. وقد استجاب الله الطلبات الأربعة معًا:

قَالَ قَدْ أُوتِيَ سُؤْلَكَ يَمُوسَى

سورة طه، الآية ٣٦

يقول الرافعي إن هذا الدعاء من أبلغ نماذج الدعاء النبوي: طلب موسى ما يخص شخصيته وقدرته على التبليغ، لا معجزات إضافية.



"قولا له قولاً لينا"

أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ • فَقَوْلَا لَهُ قَوْلَ الْإِنِّ الْعَلَّهُ
يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ

يعلق ابن القيم على هذه الآية بأنها أصل عظيم في منهج الدعوة: أن يُخاطب حتى أشد الطغاة كفرًا بالقول اللين.

قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى • قَالَ لَا
تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى

"إنني معكما أسمع وأرى" — أعظم ضمان يمكن أن يُمنح لداعيين يواجهان طاغية.

خلاصة الجزء الثاني

في هذا المقطع، تحوّل موسى من رجل يبحث عن شعلة نار، إلى نبيٍّ مكلم مباشرة، مزوّد بآيتين، ومدعوم بأخيه شريكًا، وموعودًا بمعية إلهية مباشرة.

[يتبع الفصل الحادي عشر: الجزء الثالث — مواجهة فرعون، والسحرة، والخروج]

[يتبع الفصل الحادي عشر: الجزء الثالث — مواجهة فرعون، والسحرة، والخروج]

موسى عليه السلام (٣)

من قصر الطاغية إلى قاع البحر

"فمن ربكما يا موسى؟"

قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يُوسَىٰ • قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ
خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ

سورة طه، الآيتان ٤٩-٥٠

ردّ موسى حجةً كونية شاملة: "الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى" —
دليل ربوبية لا يحتاج معجزة لإثباته.



فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ ۖ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا
تُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى

سورة طه، الآية ٥٨

قَالُوا يَمُوسَىٰ- إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ •
قَالَ بَلْ أَعِزُّوا^{صلى} إِذَا جَاءَهُمْ وَعَصِيهِمْ يُخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ
أَنَّهُ تَسْعَىٰ • فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَىٰ • قُلْنَا لَا
تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ

سورة طه، الآيات ٦٥-٦٨

من التفسير: بيّن المفسرون أن خوف موسى هنا كان خوفًا بشريًا فطريًا لحظيًا، لا خوفًا من ضعف يقينه. وقد سارع الوحي لتثبيته فورًا قبل وقوع الفعل.

يقول ابن القيم إن هذا الموقف يعلمنا أن الخوف الفطري اللحظي لا يتنافى مع كمال اليقين، والعبرة بما يعقبه من ثبات.



إيمان السحرة

فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى

سورة طه، الآية ٧٠

يقول الرافعي إن هذا المشهد يعلم أن أهل الاختصاص هم أسرع الناس إدراكًا لحدود علمهم حين يواجهون حقًا يفوق تخصصهم.

قَالَ ءَامَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي
عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَا تُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خَلْفٍ
وَلَا تُصَلِّبُوا فِي جُذُوعِ النَّخْلِ

سورة طه، الآية ٧١

قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيْتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا
فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا • إِنَّا
ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطِئَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ
وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ

سورة طه، الآيتان ٧٢-٧٣

"إنما تقضي هذه الحياة الدنيا" — جملة تختصر أعظم موازنة إيمانية:
أن يهون كل تعذيب دنيوي أمام يقين راسخ بالآخرة.



الخروج والمطاردة: "إنا لمدركون"

وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ
طَرِيقَ الْبَحْرِ يَبَسْ لَا تَخَفْ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ

سورة طه، الآية ٧٧

فَلَمَّا تَرَأَ الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ • قَالَ
كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ

سورة الشعراء، الآيتان ٦١-٦٢

البحر أمامهم، وجيش فرعون خلفهم. يقول الغزالي إن هذه اللحظة تمثل ذروة اليقين: اتكأ على مَنْ يملك الأسباب كلها لا على الأسباب المرئية.



انفلاق البحر

فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ
فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ • وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخِرِينَ •
وَأَنْجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ • ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ

سورة الشعراء، الآيات ٦٣-٦٦



حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي
ءَامَنْتُ بِهِ ۚ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ • ءَالِثَنَ وَقَدْ
عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ

سورة يونس، الآيات ٩٠-٩١

من التفسير: بيّن المفسرون أن هذا الرد الإلهي يقرر أصلاً عقدياً: أن التوبة لا تُقبل
في لحظة معاينة الموت، لأن الإيمان حينئذ يصبح إيمان اضطرار لا اختيار.

فَالْيَوْمَ نُنَجِّكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا
مِّنَ النَّاسِ عَنْ ءَايَتِنَا لَغَافُلُونَ

سورة يونس، الآية ٩٢

يلاحظ كثيرٌ من الباحثين المعاصرين أن هذه الآية تحققت بصورة ملموسة: فقد اكتُشفت مومياوات ملوك مصر القديمة محفوظة إلى اليوم، شاهدةً بجسدها المادي على صدق هذا الخبر القرآني.

خلاصة الجزء الثالث

من مواجهة "فمن ربكما"، إلى انقلاب السحرة إلى صفّ الحق، إلى استحالة الفرار عند البحر التي انقلبت طريقًا يابسًا، إلى غرق أعتى طاغية — تكتمل واحدة من أعظم معارك الحق والباطل في القصص القرآني.

[يتبع الفصل الحادي عشر: الجزء الرابع والأخير — الألواح، العجل، والتيه]

موسى عليه السلام (٤)

أربعون ليلة، وعجلٌ من ذهب، وغضبُ نبويٍّ

المِيقَات: "رَبِّ أَرْنِي أَنْظِرْ إِلَيْكَ"

وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظِرْ
إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرِيكَ وَلَكِنْ أَنْظِرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ
مَكَانَهُ فَسَوْفَ نَرِيكَ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا
وَاخِرَ مُوسَى صَعِقَ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ ثَبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا
أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ

سورة الأعراف، الآية ١٤٣

من التفسير: بين أهل السنة أن هذه الآية دليل على إمكانية رؤية الله في الآخرة، إذ لم يُقل لموسى "لن تراني أبداً" مطلقاً، بل علّقت الرؤية على استقرار الجبل، وهو أمر ممكن عقلاً وإن لم يقع في الدنيا لضعف قوى البشر.

قَالَ مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمِي نَخُذْ
مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ

سورة الأعراف، الآية ١٤٤



عبادة العجل

وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِن حُلِيِّمٍ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ
خَوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ
وَكَانُوا ظَالِمِينَ

يقول ابن القيم إن سرعة هذا الانحراف، رغم قرب عهدهم بالمعجزات، تدل على أن مجرد رؤية الآيات لا تضمن ثبات الإيمان.

وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ
يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ



وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضَبَ عَلَيْهِمْ أَسَفًا قَالَ بِئْسَمَا
خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعْجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَحَ وَآخَذَ
بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجْرِمُوهُ إِلَيْهِ

سورة الأعراف، الآية ١٥٠ (مقتطفة)

قَالَ ابْنُ أُمٍّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا
تُشِمْتْ بِي الْأَعْدَاءُ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ

سورة الأعراف، الآية ١٥٠ (تتمتها)

نداء هارون لأخيه بـ"ابن أم" بدل "يا موسى" الرسمية، استدعاء عاطفي مقصود لرابطة الأمومة المشتركة، وقد نجحت الحيلة العاطفية اللطيفة.

قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ
أَرْحَمُ الرَّحِيمِينَ

سورة الأعراف، الآية ١٥١

وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَحَ وَفِي نُسْخَتِهَا
هُدًى وَرَحْمَةً لِّمُذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يُرْهَبُونَ

سورة الأعراف، الآية ١٥٤



دعاء الرحمة الواسعة

قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِنِّي أَتْلِكُكَا بِمَا فَعَلَ
السُّفَهَاءُ مِنَّا إِن هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي

مَنْ تَشَاءُ... وَآكُتِبَ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ
إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ

سورة الأعراف، الآيات ١٥٥-١٥٦ (مقتطفة)

قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ^ط وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ
شَيْءٍ^ج فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ
بِأَيِّتِنَا يُؤْمِنُونَ

سورة الأعراف، الآية ١٥٦ (تمتتها)

يقول الغزالي إن هذه الآية من أعظم آيات الرجاء في القرآن: "ورحمتي
وسعت كل شيء" إطلاق عام يُقَيَّد فوراً بشرط الكتابة الفعلية.

خلاصة فصل موسى الكبير

من تابوت في اليمّ، إلى قصر الطاغية، إلى فرارٍ خائف، إلى نارٍ عند الطور، إلى مواجهة أعتى ملوك الأرض، إلى انفلاق البحر، إلى كلامٍ إلهي مباشر، إلى غضبٍ نبوي بشري أمام الانحراف — رسمت سيرة موسى عليه السلام أشمل نموذج نبوي في هذا الكتاب.

هارون، ذو الكفل، إيلياس، واليسع

أربعة أنبياء: شريك الرسالة، والصابر، ومحارب البعل، والمكمل الصامت

هارون: الوزير النبيّ

وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا

سورة مريم، الآية ٥٣

يُلاحَظ أن القرآن لم يُفرد لهارون قصة مستقلة، بل ربط نبوّته دائماً برسالة أخيه، وفي هذا درس عن قيمة الشراكة في حمل الرسالة.



ذو الكفل: من الصابرين

وَاسْمِعِلْ وَأَذْرِيسَ وَذَا الْكُفْلِ^ط كُلُّ^ط مِّنَ الصَّابِرِينَ •
وَأَدْخَلْنَهُمْ فِي رَحْمَتِنَا^ط إِنَّهُمْ مِّنَ الصَّالِحِينَ

سورة الأنبياء، الآيات ٨٥-٨٦

من التفسير: اختلف المفسرون في تحديد شخصية "ذي الكفل"، والأقرب عند جمع من المحققين أنه نبي صالح تكفل بعمل صالح فسمي به، والله أعلم بحقيقة قصته إذ لم يرد فيها تفصيل معتمد.



إلياس: "أدعون بعلاً وتذرون أحسن الخالقين؟"

وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ • إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ •
أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ • اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبَّ
آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ

سورة الصافات، الآيات ١٢٣-١٢٦

فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ • إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ • وَتَرَكَآ
عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ • سَلَّمَ عَلَىٰ إِلَٰهٍ يَاسِينَ • إِنَّا كَذَّلِكَ نَجْزِي
الْمُحْسِنِينَ

سورة الصافات، الآيات ١٢٧-١٣١

من التفسير: ذكر المفسرون أن "سلام على إله ياسين" وردت بهذه الصيغة وفق
قراءات القرآن المتواترة، لهجة عربية قديمة في نطق بعض الأسماء الأعجمية.



اليسع: ذكرٌ في صفوف الأخيار

وَأَذْكُرُ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ

سورة ص، الآية ٤٨

يَعْلَمُنَا ذِكْرُ الْيَسَعَ الْمُقْتَضِبِ دَرْسًا مَهْمًا: أَنَّ عِظَمَةَ النَّبَوَةِ لَا تُقَاسُ بِطُولِ الْقِصَّةِ الْمَرْوِيَةِ عَنْ صَاحِبِهَا فِي الْقُرْآنِ.

خلاصة الفصل

جمع هذا الفصل أربعة أنبياء تتفاوت مساحة ذكرهم في القرآن تفاوتًا كبيرًا، ومع ذلك وحدهم القرآن جميعًا بأوصاف الاصطفاء ذاتها: الصبر، والصلاح، والخيرية.

داود عليه السلام

الملك النبي، وصاحب الصوت الذي سبّحت لأجله الجبال

تسبيحٌ يشارك فيه الجبال والطير

وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ ^ط إِنَّهُ أَوَّابٌ • إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ
مَعَهُ ^ط يُسَبِّحُنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ • وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ ^ط
أَوَّابٌ

سورة ص، الآيات ١٧-١٩

من التفسير: فسّر المفسرون "ذا الأيد" بمعنى صاحب القوة في العبادة والملك معًا. وذكروا في تفسير تسخير الجبال والطير للتسبيح معه قولين: إما تسبيح حقيقي، أو أن صوته كان بديع الجمال بحيث تتوقف الطير لسماعه.



من السنة الصحيحة: "مزمار من مزامير آل داود"

«يا أبا موسى، لقد أُوتيتَ مزماراً من مزامير آل داود»

متفق عليه (البخاري ومسلم) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه

هذا الحديث يؤكد ما أشارت إليه الآية: أن صوت داود عليه السلام في قراءة الزبور كان مضرِباً للمثل في العذوبة حتى بعد قرون من زمانه.



الحكمة وفصل الخطاب

وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ ۖ وَءَاتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ

سورة ص، الآية ٢٠



قصة الخَصَمين

إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ
 بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَأَحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ
 وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ • إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ
 نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةً وَاحِدَةً فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ

سورة ص، الآيتان ٢٢-٢٣

قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ
 الْخُلَطَاءِ لِيَبْغِيَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا
 الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ
 رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ

من التفسير: اختلف المفسرون في طبيعة الفتنة، والأقرب أنها استعجال الحكم قبل سؤال الطرف الآخر عن دفاعه، مخالفًا لأدب القضاء الذي يقتضي سماع الطرفين.

يقول ابن القيم إن هذه القصة تقرر أصلاً عظيمًا في العدل: أنه لا يجوز الحكم لأحد الخصمين قبل سماع الآخر.



النداء بالخلافة

يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ
بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ

لاحظ الترتيب الدقيق: التوبة أولاً، ثم التكليف بالخلافة. لا يُستخلف في الأرض إلا مَنْ اختبر ضعفه أولاً واستغفر منه.



حكم الحرث: حين يفوق فهم الابن فهم الأب

وَدَاوُدَ وَسَلِيمَ بْنَ إِذْيَحْكُنَ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَمٌّ
الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ • فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمًا وَكُلًّا ؕ آتَيْنَا
حُكْمًا وَعَلَّمْنَا

سورة الأنبياء، الآيتان ٧٨-٧٩

من التفسير: ذكر المفسرون أن حكم داود كان بتسليم الغنم لصاحب الحرث
تعويضاً، بينما رأى سليمان حكماً أدق: الانتفاع بالغنم مؤقتاً ثم ردها. ويلاحظ أن
الآية أثبتت لكليهما "حكماً وعلماً".

خلاصة الفصل

يقدم لنا داود عليه السلام نموذجاً فريداً: نبيّ جمع بين أرقى درجات العبادة الصوتية، وأخطر درجات المسؤولية، وبينهما درس محوري: أن مقام الاستخلاف لا يُمنح إلا بعد أن يعبر صاحبه اختبار الاعتراف بالخطأ والتوبة السريعة منه.

سليمان عليه السلام

مَنْ عَلَّمَهُ اللَّهُ مَنْطِقَ الطَّيْرِ، وَسَخَّرَ لَهُ الرِّيحَ وَالْجِنَّ

الميراث: علمٌ لا مالٌ فحسب

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي
فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ • وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ
دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ
شَيْءٍ إِنَّا هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ

سورة النمل، الآيات ١٥-١٦

يُلاحَظ أن أول ما ذكره سليمان من نعمه ليس الملك، بل "علّمنا منطق
الطير".



وادي النمل: تبسم من قول نملة

حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا
مَسْكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمُنُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ
• فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ
نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَلَدِي وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا
تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ

سورة النمل، الآيات ١٨-١٩

لاحظ رد فعل سليمان: لم يتباهَ بقدرته على سماع النملة، بل تحوّل فوراً
إلى الدعاء بالشكر. يقول الغزالي إن هذا هو الفرق الجوهرى بين مَنْ
يُوَهِّبُ نعمة فتزیده كبراً، ومَنْ تزیده تواضعاً.



غياب الهدهد

وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ
الْغَائِبِينَ • لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِي
بِسُلْطَنٍ مُبِينٍ

سورة النمل، الآيات ٢٠-٢١

فَكَثَّ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ نَحِطُ بِهِ • وَجِئْتُكَ مِنْ
سَبِيلٍ مِّنْ بَيْنِ يُقَيْنٍ • إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ
كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ • وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ
لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ

سورة النمل، الآيات ٢٢-٢٤

"أحطتُ بما لم تُحط به" — جملة جريئة من طائر صغير أمام ملك عظيم. يقول ابن القيم إن في هذا المشهد درسًا عن تواضع العظماء الحقيقيين.



الكتاب إلى بلقيس

قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ
فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ • قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً
أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَاجَ أَهْلِهَا آذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ

سورة النمل، الآيات ٣٣-٣٤

حكمة بلقيس السياسية هنا لافتة: اختارت طريق السلم أولاً، مدركة أن الحرب خيارٌ أخير لا أول.

فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَنُ قَالَ أُمِّدُونَنِي بِمَالٍ فَمَاءُ اتْنِ ۚ اللَّهُ خَيْرُ مِمَّا
 جِئْتُمْكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدْيِكُمْ تَفْرَحُونَ

سورة النمل، الآية ٣٦



إحضار العرش

قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ
 • قَالَ عَفَرْتُ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِّنْ
 مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ • قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنْ
 الْكِتَابِ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ

سورة النمل، الآيتان ٣٨-٤٠ (مقتطفة)

من التفسير: اختلف المفسرون في هوية "الذي عنده علم من الكتاب"، والمقصود
الأهم من الآية المقارنة بين قوة الجن المادية وقوة العلم المرتبط بالله.

فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي
أَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ
فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ

سورة النمل، الآية ٤٠ (تتمها)

مرة أخرى يتكرر نمط شخصية سليمان الجوهري: كل معجزة تزيده
تواضعًا وشكرًا لا كبرًا.



قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ
سَاقِهَا قَالَتْ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي
ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

سورة النمل، الآية ٤٤

لحظة إسلام بلقيس جاءت بعد سلسلة من الأدلة العقلية المتراكمة، لا
بمجرد عاطفة أو انبهار سريع.



تسخير الريح والجن، والموت الذي لم يشعر به أحد

وَلِسْلِمْنَ الرِّيحِ غَدُوَهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسْلَنَّا لَهُ عَيْنَ
الْقَطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ... أَعْمَلُوا
ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ

سورة سبأ، الآيات ١٢-١٣ (مقتطفة)

فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةٌ
مِّنَ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خِرَّ تَبَيَّنَتْ أَلْجُنُّ أَنَّ لَوْ كَانُوا
يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمَهِينِ

سورة سبأ، الآية ١٤

من التفسير: ذكر المفسرون أن سليمان توفي متكئاً على عصاه قائماً يراقب عمل الجن، فظلوا يعملون ظانين أنه حي، حتى أكلت الأرضة عصاه فسقط. وفي هذا دلالة قرآنية صريحة على إبطال زعم الجن معرفة الغيب.

خلاصة الفصل: ملكٌ لم يُطغِه ملكه

من تبسّمه من قول نملة، إلى شكره على إحضار العرش، إلى ردّه الفضل لله في كل معجزة — يقدّم سليمان عليه السلام نموذجاً نادراً لملكٍ لم يتحول قلبه لحظة عن التواضع والشكر.

يونس عليه السلام

صاحب الحوت، وأعظم دعاء في الظلمات

الغضب والفرار

وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ

سورة الأنبياء، الآية ٨٧ (مطلعها)

إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلِّ الْمَشْحُونِ • فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ

الْمُدْحَضِينَ • فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ

سورة الصافات، الآيات ١٤٠-١٤٢

من التفسير: استخدم القرآن هنا لفظ "أبق" و"مُليم"، من أشد ألفاظ العتاب التي وردت في وصف نبي في القرآن كله، لأن يونس غادر قومه قبل أن يأذن الله له بذلك.



الظلمات الثلاث

فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ
مِنَ الظَّالِمِينَ

سورة الأنبياء، الآية ٨٧ (تمت)



من السنة الصحيحة: فضل دعاء ذي النون

«دعوةُ ذي النون إذ دعا وهو في بطن الحوت: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، فإنه لم يدعُ بها رجلٌ مسلمٌ في شيء قط إلا استجاب اللهُ له»

أخرجه الترمذي وأحمد، وحسنه جمعٌ من المحدثين، عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه

يقول ابن القيم في تحليل بنية هذا الدعاء: إنه جمع بين توحيدٍ خالص، وتنزيهٍ لله، واعترافٍ صريح بالذنب دون تبرير — وهذا التركيب الثلاثي سرّ استجابته السريعة.



النجاة

فَاسْتَجِبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمُؤْمِنِينَ ج

سورة الأنبياء، الآية ٨٨

فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسِخِّينَ • لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ
يَبْعَثُونَ • فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ • وَأَبْنَيْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ

يَقْطِينٍ

سورة الصافات، الآيات ١٤٣-١٤٦

من التفسير: بيّن المفسرون حكمة اختيار شجرة اليقطين تحديداً: أوراقها العريضة
تظلّل جيداً وثمرها يؤكل طرياً دون تكلف، يناسب حال يونس الضعيف بعد
خروجه من بطن الحوت.



قوم آمنوا بعد التهديد

وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ • فَآمَنُوا فَفَرَّغْنَا لَهُمُ الْوَادِعَةَ إِلَىٰ

حِينِ

يذكر المفسرون أن قوم يونس هم الاستثناء الوحيد في القرآن لأمةٍ رأت مقدمات العذاب ثم آمنت جميعها قبل نزوله فُرفع عنها.

خلاصة الفصل

تحمل قصة يونس عليه السلام مفارقة عميقة: بدأت بأشدّ عتابٍ نبوي في القرآن، وانتهت بأوسع استجابة إيمانية جماعية. وبينهما دعاءٌ من ثلاث كلمات، صار ميراثًا لكل مكروبٍ إلى قيام الساعة.

زكريا ويحيى عليهما السلام

نداء خفي يُستجاب بأعجب هدية، وصبي يُؤتى الحكم في مهده

النداء الخفي

إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ۝ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ
مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا
۝ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا
فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا

سورة مريم، الآيات ٣-٥

من التفسير: بين المفسرون أن إخفاء زكريا لدعائه أدب في الدعاء وإخلاص فيه بعيداً عن مراعاة الناس، وقد استدل بهذه الآية على استحباب إخفاء الدعاء.

"ولم أكن بدعائك ربَّ شقيًّا" — استحضار لتاريخه الطويل من إجابة دعواته السابقة. يقول الغزالي إن استحضار مواضع الإجابة السابقة عند الدعاء الجديد من أعظم أسباب قوة اليقين.



البشارة

يُزَكِّرِيَا إِنَّا نَبِّشُرُكَ بِغُلْمٍ اَّسْمُهُ يُحْيِي لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ
سَمِيًّا

سورة مريم، الآية ٧

قَالَ رَبِّ اَأَنَّى يَكُونُ لِي غُلْمٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ
بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا • قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ
هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا

الرد الإلهي هنا بديع الاستدلال: "وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً" —
استدلالٌ بالخلق الأول من عدم على إمكان كل معجزة لاحقة.

قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً ۖ قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ
لَيَالٍ سَوِيًّا

سورة مريم، الآية ١٠



يحيى: "خذ الكتاب بقوة"

يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَاهُ الْحَكْمَ صَبِيًّا ۚ وَحَنَانًا
مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ۚ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا
عَصِيًّا ۚ

سورة مريم، الآيات ١٢-١٤

أربع صفات جمعت ليحيى: الحكمة في الصِّبَا، والحنان، والزكاة،
والتقوى، والبرّ بالوالدين مع نفي الجبروت. يلاحظ الرافعي جمال اقتران
"برًا بوالديه" بنفي "جبارًا عصيًا".

وَسَلَّمَ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ۖ

سورة مريم، الآية ١٥

سلامٌ في يوم الولادة، ويوم الموت، ويوم البعث — ثلاث محطات هي
أصعب لحظات الوجود الإنساني.

خلاصة الفصل

تكتمل في هذا الفصل حلقة نادرة: أبٌ شيخٌ يدعو سرًّا فيُستجاب علنًا، وابنٌ
يُخاطب من الله وهو صبيٌّ لم يبلغ الحُلُم.

عيسى عليه السلام (١)

البشارة، والمخاض تحت النخلة، والكلام في المهد

البشارة

فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا • قَالَتْ إِنِّي
أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا

سورة مريم، الآيات ١٧-١٨

استعازة مريم الفورية بالرحمن، قبل أن تعرف حقيقة من أمامها، تكشف
عمق تقواها الفطرية. يقول الغزالي إن هذا نموذج للورع الوقائي.

قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلْمًا زَكِيًّا ۝١ قَالَتْ
 أَنَّى يَكُونُ لِي غُلْمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ۝٢ قَالَ
 كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً
 مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ۝٣

سورة مريم، الآيات ١٩-٢١

من التفسير: لاحظ المفسرون تناظرًا دقيقًا بين هذا الحوار وحوار زكريا الذي سبقه
 في السورة مباشرة: كلاهما استغرب الإنجاب، وكلاهما جاءه الرد بذات الصيغة:
 "هو عليّ هَيِّنٌ".



فَاجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلِّتَنِي مِتُّ قَبْلَ
هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَّنْسِيًّا

سورة مريم، الآية ٢٣

فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا
• وَهَزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسْقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا •
فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا

سورة مريم، الآيات ٢٤-٢٦ (مقطعة)

من التفسير: أمرها الله بهزّ جذع النخلة اليابس رغم قدرته أن يُسقط الرطب عليها مباشرة. استنبط العلماء من هذا أن الأخذ بالأسباب لا يتنافى مع التوكل.



فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ^ط قَالُوا يَمْرِمُ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا
• يَا خَتَّ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ
بَغِيًّا

سورة مريم، الآيات ٢٧-٢٨

فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ^ط قَالُوا كَيْفَ نَكَلِمُكَ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا

سورة مريم، الآية ٢٩

قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا • وَجَعَلَنِي
مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ

حَيَّ ٠ ١ وَبَرًّا بُولَدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ٠ ١ وَالسَّلَامُ
عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ١

سورة مريم، الآيات ٣٠-٣٣

أول كلمة نطق بها عيسى: "إني عبد الله" — ليس "إني ابن الله". يقول ابن القيم إن هذا التوقيت بالذات مقصودٌ إلهيًّا ليكون حجة قاطعة على كل من يدعي له لاحقًا ما لم يدَّعه هو لنفسه قط.

خلاصة الجزء الأول

من بشارية فاقت العادة، إلى ولادة في أصعب الظروف، إلى كلام في المهد يدحض كل تهمة — تبدأ سيرة عيسى بسلسلة معجزات متلاحقة، ووضع القرآن على لسانه إعلان العبودية الخالصة لله منذ اللحظة الأولى.

عيسى عليه السلام (٢)

معجزات متكررة "ياذن الله"، وحواريون نصرّوا الدين

معجزات النبوة

وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي
أَخْلَقْتُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا
بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ

سورة آل عمران، الآية ٤٩

من التفسير: لاحظ المفسرون التكرار المتعمّد للفظـة "ياذن الله" بعد كل معجزة —
تأكيد عقدي متكرر أن عيسى مجرد أداة تُظهر بها قدرة الله، وهذا يُبطل سلفاً أي
زعم لاحق بألوهيته.



الحواريون

فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ^ط
 قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا
 مُسْلِمُونَ

سورة آل عمران، الآيتان ٥٢-٥٣



المائدة

إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يُعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ
 يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ^ط قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ

مُؤْمِنِينَ • قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ
قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ

سورة المائدة، الآيتان ١١٢-١١٣

قَالَ اللَّهُ إِنِّي مَنِّتُ عَلَيْكُمْ^ط فَتَنَّا بِمَا عَمِلْتُمْ فَكَفَرْتُمْ بَعْدَ مَنِّكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ^ط
عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ

سورة المائدة، الآية ١١٥

يقول الرافعي إن هذا التحذير الشديد يعلمنا أن كلما ازداد وضوح الآية،
ازدادت المسؤولية على من يشهدها ثم يكفر بعدها.

خلاصة الجزء الثاني

رأينا عيسى نبياً مُعْجِزًا بإذن الله، ومُحَاطًا بأنصارٍ أخلصوا الولاء، لكنه واجه
أيضاً اختبار الثقة حتى من أقرب أتباعه.

عيسى عليه السلام (٣)

مكرٌ قوبل بمكر أعظم، ورفع لا صلب

المؤامرة

وَمَكُرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكِرِينَ^{٥٤}

سورة آل عمران، الآية ٥٤

إِذْ قَالَ اللَّهُ يُعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَرَأْنِي مِنْكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ
الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى
يَوْمِ الْقِيَامَةِ

سورة آل عمران، الآية ٥٥ (مطلعها)



نفي الصلب

وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا • بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا

سورة النساء، الآيات ١٥٧-١٥٨

من التفسير: أجمع علماء أهل السنة على أن هذه الآيات تنفي قتل عيسى وصلبه نفياً قاطعاً، وأن الله رفعه إليه حيّاً. والراجح عند جمهور أهل السنة والجماعة أن عيسى رُفِعَ بجسده وروحه حيّاً إلى السماء، وأنه سينزل آخر الزمان قبيل الساعة، كما دلت على ذلك أحاديث صحيحة كثيرة عن نزوله وقتله للدجال.

يقول ابن القيم إن في هذه القصة درسًا عن حفظ الله لأتبيائه من
الخاتمة المهينة التي يتوهمها أعداؤهم انتصارًا.



يوم القيامة: تنزيهٌ صريح

وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يُعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي
وَأُمِّي إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ^ط قَالَ سُبْحَنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ
أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ ^ج إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا
فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عِلْمُ الْغُيُوبِ ^ج

سورة المائدة، الآية ١١٦

يقول الغزالي إن جواب عيسى هنا نموذج أعلى درجات التنزيه والتأدب مع الله حتى في مقام الدفاع عن النفس.

ج
مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ
وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ
الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ

سورة المائدة، الآية ١١٧

من التفسير: نبّه المفسرون إلى دقة تعبير عيسى: "كنت عليهم شهيدًا ما دمت فيهم" — مسؤوليته انتهت برفعه، وما ابتدعوه من عقائد الشرك حدث في غيابه، لا يعلمه أو رضاه.

ج
إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ

يقول الرافعي إن ختام هذا الحوار بهذا التفويض الكامل يمثل ذروة التسليم لحكم الله وحده.

خلاصة فصل عيسى

من كلام في المهد ينفي عن أمه كل تهمة، إلى كلام يوم القيامة ينفي عن نفسه كل ادعاء ألوهية — تكتمل دائرة حياة عيسى عليه السلام بنفس الجوهر: عبدٌ لله من أول لحظة نُطقٍ إلى آخر مساءلة يواجهها.

محمد صلى الله عليه وسلم (١)

اليتيم الذي آواه ربه، وأول لحظات الوحي في غار حراء

يَتِيمٌ آوَاهُ اللَّهُ

أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى • وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى •
وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى

سورة الضحى، الآيات ٦-٨

من التفسير: بين المفسرون أن يُتِم النبي صلى الله عليه وسلم كان مبكرًا: توفي أبوه عبد الله قبل ولادته أو بعدها بقليل، وتوفيت أمه آمنة وهو ابن ست سنين، فكفله جدّه ثم عمه أبو طالب. وفسّروا "ووجدك ضالًّا فهدى" بأنه كان قبل الوحي غير عالم بتفاصيل الشرائع، لا أنه كان على ضلالٍ عقدي.

يقول ابن القيم إن في تذكير الله لنبیه بهذه المحطات الثلاث حكمة تربوية عظيمة: أن يستحضر العبد أصل ضعفه قبل أن يستحضر ما بلغه من كرامة.



شرح الصدر ورفع الذكر

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ • وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ • الَّذِي
أَنقَضَ ظَهْرَكَ • وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ

سورة الشرح، الآيات ١-٤

"ورفعنا لك ذكرك" — وعدٌ تحقق بصورة تفوق كل تصور: يُذكر اسم محمد صلى الله عليه وسلم مقترباً بذكر الله في الأذان خمس مرات يوميًا في كل بقعة على الأرض تقريبًا.



من السنة الصحيحة: أول لحظات الوحي في غار حراء

روت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، فيما أخرجه البخاري في أول كتاب من صحيحه، تفاصيل بداية الوحي: أن أول ما بُدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم الرؤيا الصادقة، ثم حُبَّ إليه الخلاء، فكان يخلو بغار حراء حتى فاجأه الحق:

جاءه الملك فقال: اقرأ. قال: «ما أنا بقارئ». قال: «فأخذني فغطّني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ. قلت: ما أنا بقارئ. فأخذني فغطّني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ. فقلت: ما أنا بقارئ. فأخذني فغطّني الثالثة، ثم أرسلني فقال: اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم»

أخرجه البخاري في أول صحيحه، كآب بدء الوحي، عن عائشة رضي الله عنها

فرجع النبي صلى الله عليه وسلم ترتجف فرائصه، حتى دخل على خديجة رضي الله عنها فقال: "زملوني زملوني" فزملته حتى ذهب عنه الروع، ثم أخبرها الخبر وقال: "لقد خشيت على نفسي".

فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: «كَلَّا وَاللَّهِ مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ،
وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ»
أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ، كَتَابُ بَدَأِ الْوَحْيِ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا

لَمْ تُطْمَئِنَّهُ خَدِيجَةُ بِحُجَّةٍ دِينِيَّةٍ، بَلْ بِسَرْدٍ لِأَخْلَاقِهِ الْعَمَلِيَّةِ الْمَلْمُوسَةِ.
يَقُولُ الْغَزَالِيُّ إِنَّ هَذَا يَعْلَمُنَا أَنَّ أَصْدَقَ دَلِيلٍ عَلَى اسْتِقَامَةِ الدِّينِ هُوَ
اسْتِقَامَةُ السُّلُوكِ السَّابِقَةِ عَلَيْهِ.

فَانْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ إِلَى وَرَقَةَ بْنِ نَوْفَلٍ، شَيْخِ نَصْرَانِي عَالِمٍ بِالْكِتَابِ السَّابِقَةِ:

فَقَالَ وَرَقَةُ: «هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي نَزَّلَ اللَّهُ عَلَى مُوسَى، يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا،
لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ». فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:
«أَوْخَرَجِيْ هَمْ؟» قَالَ: «نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا
عُودِي، وَإِنْ يَدْرِكُنِي يَوْمَكَ أَنْصُرَكَ نَصْرًا مُّؤَزَّرًا»
أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ، كَتَابُ بَدَأِ الْوَحْيِ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا



فترة الوحي

ثم فتر الوحي فترة، أحزنت النبي صلى الله عليه وسلم حزناً شديداً، حتى جاءه الملك مرة أخرى، كما ثبت في حديث جابر بن عبد الله في الصحيحين، فرآه على كرسي بين السماء والأرض، ففزع ورجع يقول: "زملوني زملوني"، فأنزل الله عليه:

يَا أَيُّهَا الْمَدَّثِرُ • قُمْ فَأَنْذِرْ • وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ

سورة المدثر، الآيات ١-٣

يجمع هذا المقطع بين الرعب الفطري الأول أمام هول الوحي (كما رأينا مع موسى)، والحاجة لطمأنة قلبية من أقرب الناس (كما رأينا مع مريم)، وفترة انقطاع تعقبها استئناف أثقل.

خلاصة الجزء الأول

من طفلٍ يتيم آواه الله، إلى شابٍّ عُرف بالأمانة والصدق، إلى رجلٍ في الأربعين يُفاجأً بأثقل تكليف عرفته البشرية — تبدأ سيرة خاتم الأنبياء بنفس الملامح التي رأيناها متفرقة في سير مَنْ سبقه.

[يتبع الفصل الثامن عشر: الجزء الثاني — الدعوة العلنية، والاضطهاد، والإسراء والمعراج]

محمد صلى الله عليه وسلم (٢)

من إنذار العشيرة إلى رحلة السماوات السبع

إنذار العشيرة الأقربين

وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ • وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ
مِنَ الْمُؤْمِنِينَ

سورة الشعراء، الآيات ٢١٤-٢١٥

من التفسير: ورد في الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم صعد الصفا ونادى بطون قريش، فقال: "أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تُغير عليكم، أكنتم مصدقي؟" قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقاً. فقال: "فإني نذير لكم بين يدي عذابٍ شديد".



اضطهاد المستضعفين

ولما جاهر بالدعوة، اشتد أذى قريش على أتباعه، خاصة الضعفاء. وقد صبر بلال بن رباح رضي الله عنه على تعذيبٍ شديد، وهو يقول "أحدٌ أحد". وعُذِّب آل ياسر حتى استشهدت سمية رضي الله عنها، أول شهيدة في الإسلام.



عام الحزن

توفيت خديجة رضي الله عنها، ثم توفي عمه أبو طالب في وقتٍ متقارب، فسُمِّي هذا العام "عام الحزن".



رحلة الطائف: أشد يومٍ في حياته

خرج النبي صلى الله عليه وسلم إلى الطائف يطلب النصرة، فردَّوه ردًّا قاسيًا، وأغروا به سفهاءهم يرمونه بالحجارة. وقد ثبت في الصحيحين عن عائشة

رضي الله عنها أن أشد ما لقيه من قومه كان يوم الطائف، فأدركه جبريل عليه السلام مع ملك الجبال:

قال ملك الجبال: «يا محمد، إن الله قد سمع قول قومك لك، وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين». فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً»

متفق عليه (البخاري ومسلم) من حديث عائشة رضي الله عنها

في أشد لحظة أذى شخصي، عُرض عليه الانتقام الفوري الكامل، فرفض، مؤثراً احتمال أن يخرج من ذرية هؤلاء المؤذنين من يوحد الله. يقول ابن القيم إن هذا الموقف يلخص جوهر الرحمة النبوية: "وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين".



سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى
الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ ءَايَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ
السَّمِيعُ الْبَصِيرُ

سورة الإسراء، الآية ١

من التفسير: بيّنت أحاديث الصحيحين أنه صلى الله عليه وسلم صلى إمامًا
بالأنبياء في المسجد الأقصى، ثم عُرج به إلى السماوات السبع، فرأى في كل سماء
نبيًا يُسلم عليه، حتى بلغ سدرة المنتهى، وفُرضت عليه الصلوات الخمس بعد أن
كانت خمسين، بمراجعات أشار بها موسى عليه السلام أن يرجع لربه فيسأله
التخفيف.

يستوقفنا هنا لقاء محمد بموسى عليهما السلام: موسى الذي مرّت بنا
سيرته الطويلة، هو مَنْ أشار على محمد بمراجعة ربه. وكأن هذا اللقاء

العابر يجمع خيوط هذا الكتاب كله في مشهدٍ واحد: الأنبياء الذين مررنا
بسيرهم متفرقة، يجتمعون أخيرًا في رحلة واحدة.

خلاصة الجزء الثاني

يجمع هذا الجزء بين أقسى ما تعرّض له نبيٌّ من أذى جسدي مباشر، وأعظم
ما نال نبيٌّ من تكريم مباشر.

[يتبع الفصل الثامن عشر: الجزء الثالث — الهجرة، وبدر، والمواجهات الكبرى]

محمد صلى الله عليه وسلم (٣)

من الغار إلى بدر، ومن أحد إلى الخندق

الهجرة: "لا تحزن إن الله معنا"

بين تأمرت قريش على قتله، هاجر النبي صلى الله عليه وسلم مع صاحبه أبي بكر الصديق رضي الله عنه إلى المدينة، فاختبأ في غار ثور. حتى وقف المشركون على فم الغار، فخاف أبو بكر، فطمأنه القرآن نفسه:

إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ
أَثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ
مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا

سورة التوبة، الآية ٤٠ (مقتطفة)

"لا تحزن إن الله معنا" — أربع كلمات تختصر يقين النبوة كلها. يقول
الرافعي إن جمال هذه الجملة يكمن في ضمير الجمع "معنا" لا "معي":
مواسيًا خوف صاحبه بيقينه هو.



بدر: "وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى"

إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ
الْمَلِكَةِ مُرْدِفِينَ

سورة الأنفال، الآية ٩

فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ
اللَّهَ رَمَى

يقول ابن القيم إن هذه الآية من أدق آيات القدر: تُثبت الفعل للعبد ظاهراً، وتنفيه عنه حقيقة، وتُثبت له — جمعاً بين إثبات السعي البشري ونفي استقلاله عن التقدير الإلهي.



الخدق: ربح وجنود لم تُر

إِذْ جَاءُوكُم مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ
الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا •
هَٰنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا

سورة الأحزاب، الآيات ١٠-١١

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ
جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا

سورة الأحزاب، الآية ٩

يذكرنا هذا بنمط رأيناه من قبل: تسخير الريح لسليمان، وانفلاق البحر
لموسى — القوى الكونية تخضع لأمر الله وحده، تأكيدًا أن النصر
الحقيقي "من عند الله" دومًا.

خلاصة الجزء الثالث

من غارٍ يختبئ فيه مطارداً، إلى قائدٍ ينتصر بمدد غيبي في بدر، إلى صمودٍ
في أشد حصارٍ في الخندق — يرسم هذا الجزء تحوّل النبي صلى الله عليه
وسلم من داعيةٍ مطارداً إلى قائد دولة ناشئة، دون أن يتغير جوهر اعتماده على
الله.

[يتبع الفصل الثامن عشر: الجزء الرابع والأخير — الفتح، حجة الوداع، والرحيل]

محمد صلى الله عليه وسلم (٤)

فتحُ بلا قتال، وحجةٌ للوداع، ورحيلٌ إلى الرفيق الأعلى

فتح مكة

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ
ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا
مُسْتَقِيمًا

سورة الفتح، الآيات ١-٢

ثم جاء فتح مكة الفعلي عام ثمانٍ للهجرة، دون قتالٍ يُذكر. وحين وقف أمام
صناديد قريش الذين آذوه سنين طويلة، سألهم: "ما تظنون أني فاعلٌ بكم؟"
فأجابوا: "خيرًا، أخٌ كريم وابن أخٍ كريم".

استحضر النبي صلى الله عليه وسلم في هذه اللحظة آية يوسف عليه السلام التي مرّت بنا في فصله: "لا تثريب عليكم اليوم"، مستلهماً موقف يوسف مع إخوته. وهذا الاستحضار المتعمّد يربط بجمالٍ بالغ خيوط هذا الكتاب كله: فكما عفا يوسف عن إخوته، عفا محمد صلى الله عليه وسلم عن أشد أعدائه مستخدماً نفس الكلمات القرآنية. وقد ثبتت تسمية مَنْ أطلقهم النبي يومئذٍ بـ"الطلاق" في السنة، وإن اختلف العلماء في ثبوت إسناد بعض ألفاظ هذا الموقف بعينها، فإن جوهر العفو العام يوم الفتح ثابتٌ تاريخياً بيقين لا يخالطه شك.



حجة الوداع

وفي السنة العاشرة للهجرة، حجّ النبي صلى الله عليه وسلم حجته الوحيدة الكاملة، وخطب خطبته المشهورة في عرفة، مقررًا حرمة الدماء والأموال والأعراض، ووصية بالنساء خيرًا، وإلغاء كل تفاخر الجاهلية بالنسب.

ثبت في السيرة أن من أهم ما قرره أن لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى. وفي نفس هذا الموسم، نزلت آية إكمال الدين:

الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا

سورة المائدة، الآية ٣ (مقتطفة)

من التفسير: بين المفسرون أن هذه الآية نزلت يوم عرفة في حجة الوداع، وأنها من آخر ما نزل من القرآن تشريعًا. وقد روي أن أبا بكر رضي الله عنه بكى عند نزولها، مدركًا أن كمال الشيء إيذانٌ بقرب نهايته.



الرحيل: "اللهم الرفيق الأعلى"

وفي شهر ربيع الأول من السنة الحادية عشرة للهجرة، اشتد المرض بالنبي صلى الله عليه وسلم. وقد ثبت في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أنها

سمعته يقول وهو صحيح: "إنه لم يُقبض نبيٌّ حتى يرى مقعده من الجنة، ثم يُخَيَّر". فلما نزل به المرض الأخير، ورأسه في حجرها، أفاق فأشخص بصره إلى سقف البيت وقال:

«اللهم الرفيق الأعلى»

أخرجه البخاري عن عائشة رضي الله عنها

وكانت آخر وصاياه، كما ثبت في صحيح مسلم، الوصية بالصلاة وبمن ملكت الأيمان. وقد أعتق مماليكه، وتصدَّق بما كان معه، وقال فيما ثبت في البخاري: "نحن معاشر الأنبياء لا نُورَث، ما تركناه صدقة".

يقول ابن القيم إن اختيار النبي صلى الله عليه وسلم "الرفيق الأعلى" على البقاء في الدنيا، وهو في أوج انتصاره، يمثل ذروة الزهد النبوي. وقد اختتم حياته كما بدأها في غار حراء: قلبًا متعلقًا بربه وحده.

خلاصة فصل خاتم الأنبياء

من يتيم آواه الله، إلى غار حراء، إلى سنوات الأذى والصبر، إلى الهجرة، إلى بدر والخندق، إلى فتح مكة بالعفو لا بالانتقام، إلى حجة الوداع التي أُرست

ميثاق الكرامة الإنسانية، إلى رحيلٍ اختار فيه الرفيق الأعلى على كل ملكٍ بلغه
— تكتمل سيرة خاتم الأنبياء بجمعها كل الخيوط التي تتبعناها متفرقة عبر هذا
الكتاب كله.

ثمانية عشر نبياً، ودرس واحد

حين نجمع القصص كلها في نظرة أخيرة

م ن آدم أبي البشر إلى محمد خاتم الأنبياء، مررنا في هذا الكتاب بثمانية عشر نبياً، كل واحد منهم حمل جزءاً من رسالة واحدة متصلة الحلقات، امتدت آلاف السنين، ومع ذلك لم تتناقض في جوهرها لحظة واحدة: التوحيد أولاً، ثم العدل، ثم الصبر، ثم التوبة السريعة من الخطأ، ثم التوكل المطلق حين تنعدم الأسباب الظاهرة.

وإذا حاولنا أن نستخلص خيوطاً جامعة تعبر هذا الكتاب كله، فلعل أبرزها:

الخيط الأول: النبوة لا تعني العصمة من الخطأ

آدم عصى فتاب، ويونس فرّ فنودي، وداود استعجل الحكم فاستغفر، وموسى غضب فسكت عنه الغضب، حتى محمداً صلى الله عليه وسلم عوتب في القرآن المدني في مواضع عدة. لم تكن النبوة يوماً حصانة من الخطأ، بل كانت دوماً سرعةً في التوبة منه.

الخِط الثاني: كل نبي واجه ابتلاءً يناسب طبيعته

نوح، صاحب المعركة الطويلة، اختُبر بطول الزمن. إبراهيم، صاحب اللحظة الحادة، اختُبر بذبح ابنه في لحظة واحدة. أيوب اختُبر بالجسد. يوسف اختُبر بالفتنة والسجن. وعيسى اختُبر بالافتراء عليه بعد رفعه. لكل نبي ابتلاؤه الخاص، المصمَّم بدقة لتظهر فيه أعماق معادن نفسه.

الخِط الثالث: التوحيد الخالص لا يتزعزع مهما ادّعى الأتباع لاحقاً

عيسى الذي أعلن "إني عبد الله" أول كلمة في حياته، وكرّرها تنزيهاً يوم القيامة. ومحمد الذي قال "قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ". كل نبي في هذا الكتاب أعلن عبوديته الخالصة لله، قبل أن يُحرّف بعض الأتباع من بعده هذه الحقيقة الواضحة.

الخِط الرابع: القرآن والسنة كافيان

التزم هذا الكتاب من أوله لآخره بمنهج صارم: القرآن الكريم بنصه الموثق، والسنة الصحيحة من الصحيحين وما صح من غيرهما، دون استطراد للإسرائيليات أو الروايات الضعيفة. وحين سكت الوحي عن تفصيل، سكت الكتاب معه، مؤمناً أن ما صح من العلم كافٍ لبناء يقينٍ راسخ.



ولماذا كان محمد خاتماً؟

لأن سيرته وحدها جمعت كل الأنماط التي رأيناها متفرقة في سابقه: صبر نوح الطويل، وتسليم إبراهيم في الهجرة الكاملة، وقيادة موسى وحزمه، ورحمة عيسى وعفوه، وعدل داود وسليمان، وصدق يوسف ووفاءه حتى في لحظة الانتقام الممكن. ولم يكن غريباً أن يستحضر بنفسه، في أعظم لحظة انتصاره، الكلمات ذاتها التي قالها يوسف قبله بقرون.

خاتمة القول

لم يكن هذا الكتاب محاولة لسرد قصص للتسلية، بل محاولة لقراءة سيرة النبوة كلها كوحدة متصلة. وإذا كان القارئ قد وصل إلى هنا بعد رحلة طويلة عبر ثمانية عشر نبياً، فلعل السؤال الذي يستحق أن يبقى معه هو ذاته الذي طرحه القرآن على كل الأمم السابقة: "أفلا تعقلون؟ أفلا تتقون؟" فتلك، في نهاية المطاف، غاية كل قصة رويت في هذا الكتاب: أن يهتدي بها قلبٌ حيٌّ إلى ربه.

تم بحمد الله وتوفيقه